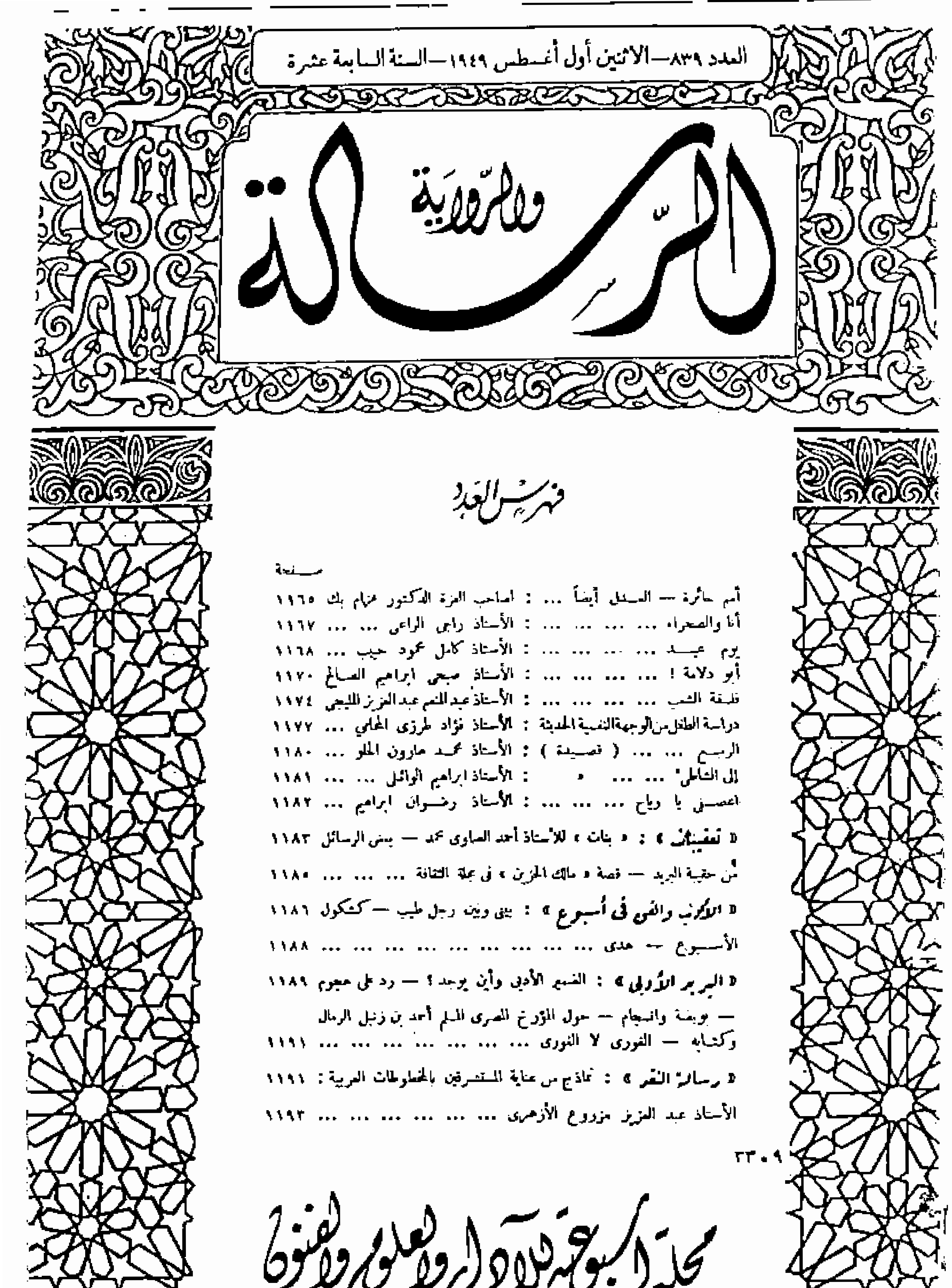


العدد ٨٣٩ — الاثنين أول أغسطس ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٣٣٠٩

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون



العدد ٨٣٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٦ شوال سنة ١٣٦٨ — أول أغسطس سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

١٣ ـ أمم حائرة

العدل أيضاً

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

(وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية)

إذا أثار الإيمان النفوس ورفعها وهداها إلى العدل ، ثم ألفت العدل ودربت عليه واطمأنت إليه ، وأخذت به في الكبير والصغير ، والعظيم والحقير ، والجليل والدقيق ، وارتفعت من الأهواء المتصادمة ، والمنافع المتقاتلة ، وأسرت كلا هنا في الأنفس الثقافة والتربية والأسوة الحسنة ، والمثل الصالح ، سيطر العدل على الآراء والأقوال والأفعال ، وماتت العصبيات المضلة ، وهلك الهوى المفرق .

يخلص الإنسان في الفكر ، ويتنزه فيه عن الهوى ، ويعدل بين الحجج ، ويلتمس الصواب حيث كان ، ويسأل الله الهدى ، ويحرص عليه مبرأ من الميل ، والجور وابتغاء مصلحة له أو مضرة لغيره فيدرك الحق أو يقاربه .

ويخلص الإنسان في قوله ، فلا يقول إلا بالحق ، وبالعدل ، ولا يتزيد لنفسه ، ولا يبخس حق غيره ، ويهجر الكلمة المضللة ، والقولة الفاتنة ، ولا يلبس الحق بالباطل فيدعي لنفسه أو جماعته وقتيا يدعي على غيره من الآحاد والجماعات ، ويتعاون الوحدان والجماعات على بيان الحق ، وإيضاحه ، وحياطته ، والدفع عنه ، وتيسيره للعقول ، وتقريبه إلى الأذهان ، وعرضه على الناس نقياً جلياً ، لا يحجبه ضباب الباطل ، ولا يخفيه زخرف الكذب وتمويهه . « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا » .

لو سار الناس على هذه السيرة أو قريب منها ، ما فتنتهم الدعاوى الباطلة ، وما أضلتهم الأقوال الخادعة ، وما سولت لهم أنفسهم أن يلبسوا الباطل ثوب الحق ابتغاء منفعة لهم ، ويصوروا الحق في صورة الباطل للاضرار بغيرهم ، وما ابتليت الأمم بهذه الجلبة والضوضاء التي يسمونها الدعاوة ، يدعي كل قبيل لنفسه ، ويزين باطله ، ويفتري على غيره ويبطل حقه ، وما أخذت الناس هذه الفتن ، والمحن في العقائد والأقوال والأعمال ، وما سد القويُّ على الضعيف الآفاق ، وضرب عليه الأسداد بما ينشر ويذيع ويكرر نشره وإذاعته ابتغاء التغلب بالحق والباطل ، بل إيثاراً للتغلب بالباطل ، وحباً للظفر بالفرية والبهتان .

لو سار الناس على السيرة العادلة أو قاربوها ما استعانوا بالنشر والإذاعة ، لترويج الأباطيل ، يفسدون بها الأخلاق ، ويفتنون بها الضعفاء ويثيرون الخوف والقلق ، ويشيعون المرج والرج ، ويزلزلون الجماعات لينالوا في الفتن المائجة رغائبهم ، ويبلغوا في النقع الثائر رغائبهم ، لا يبالون أنصروا الحق أم خذلوه ، وأبعدوا العدل أم قاربوه .

لو عدل الناس في الرأي والقول ، وجعلوا العدل قسطاساً لهم ولغيرهم ، وحداً بينهم وبين إخوانهم ، ما أجازوا بذل

الأموال ، لفتنة الأفكار ، والتوسل بالشهوات إلى تضليل العقول ، وما رضوا أن يحكِّموا السلاح في نشر المذاهب ، وزلزلة الجماعات ليبثّوا فيها رأياً أو مذهباً .

ثم لو عدل الناس في أعمالهم ، ما شهدت الأمم هذا النزاع المستمر ، والقتال المستحر ، بين أمة وأمة ، وطائفة وطائفة ، وحزب وحزب ، وفرد وفرد ، وما رأينا قوياً يظلم ضعيفاً ، ولا غنياً يجور على فقير . ولا رأينا أنس الأنيس كأنس السباع يتفارسن جهرة واغتيالا كما قال أبو الطيب .

لو عدل الناس في أعمالهم لجمعهم العدل على الحب ، ولأخذهم الحب بالأخوة ، وتعاونوا بالأخوة على الخير ، وأدى التعاون إلى الرفاهية والطمأنينة والسعادة .

لو فكر الناس بالعدل وقالوا به ، وعملوا ، وكانوا كما قال القرآن : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . ما شقى الناس في هذه الدنية الحاضرة ، وقد أتت بكل عجاب ، واخترعت كل بدْع من الصناعات وكشفت الخليقة عن أسرارها ، وسخرتها بقوانينها ، وبلغت في العلوم والمعارف ما تمنى الناس بل أكثر مما تمنوا .

لو عدل الناس ما رأينا هذه الأمم التي بلغت الذروة من هذه الحضارة تفرق بين شرق وغربي ، وأبيض وأسود ، وما شهدناها تشق بطلها ، وتهلك بصنعها ، وتقاد إلى الموت بأسباب الحياة ، وتتوسل إلى الدمار بوسائل العمران ، ولما صارت ، كما ترى ، أجساماً تتصادم ، وآلات تتقاتل ، وقطعاناً تتفانى .

لقد حُرموا العدل في كل نفس ، وبين الواحد والواحد والطائفة والطائفة ، والأمة والأمة ، والشعب والشعب . ففرقتهم المعارف وكانت حرية أن تجمعهم ، وأهلكتهم الصناعات ، وكانت جديرة أن تحييهم . ولو عدلوا ما تفرقت بهم السبل ، واختلفت الوجهات ، ولجمعهم سبيل الحق الواحد ، وطريق العدالة البين .

« وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّقَ بكم عن سبيله »

إن الناس يريدون الأخوّة ، ويحاولون السلام ، ويسعون ليجمع أممهم نظام واحد من الحق والعدل ، ولكن تخفق أعمالهم وتخيب مساعيهم بما استقرّ في أنفسهم ، من الأثرة والهوى ، وتمكن فيها من العصبية والجور .

وقد رأينا هيئة الأمم تتكلم باسم الأمم ، وتتحدث عن الحق والعدل والأخوّة والسلام حتى إذا امتحنتها الحادثات بإحدى القضايا ، رأينا الأهواء تنأى بهم عن الحق والعدل ، والعصبيات تبعد بهم عن الأخوّة والسلام ، وشهدنا المنافع والأموال والشهوات تسخرهم للباطل ، وتغريهم بالظلم . فعرفنا أنهم ليسوا أهلاً للأمانة التي حملوها ، وأن دون ما يبتغون من الأخوة والسلام عدلاً يرفعهم عما ارتكسوا فيه ، وإيماناً يؤهلهم لهذا العدل ؛ ولكنهم حُرموا العدل والإيمان .

إن البشر لا يجتمعون على الأهواء المختلفة ، ولا يأتلفون على الشهوات المتفرقة ، فلا مناص لهم — إن أرادوا السعادة — أن يحكّموا العدل في الأهواء والشهوات ليجمعهم على شرعة ، ويشملهم بقانون ، ويربط بينهم بالحق ، ويُحكِّم بينهم الأخوّة .

ولن يستطيعوا هذا حتى تغلب الروح المادة في أنفسهم ، وتنتصر القوانينُ على الجزئيات في معيشتهم ، قوانينُ الحق والعدل والخير .

ولن يبلغوا هذا المستوى إلا بإيمان يُنير النفوس ويُطهرها ويرفعها ويعظمها ...

(الكلام صلة) عبد الوهاب عزام

أنا والصحراء ...

للأستاذ راجي الراعي

وقفت أمس في قلب الصحراء أحدث إليها ، وإليك ما دار بيننا :

— من أنت أيتها الصحراء ؟

— أنا الجبال منبطحة وقد صرعتها الأقدار ...

— ألست شيئاً آخر ؟

— أنا بحر ماتت أمواجه وتقمصت رمالا ...

— كيف أنت والأفق ؟

— أرى في نجومه رمالي وري في شمسه ..

— والعبقرية ؟

— أنا أذنها التي تلتقط أصواتها التي لا يلتقطها الناس ..

— والمرأة والحب ؟

— أنا ليلى ومجنونها .. وجميل وبثينة .. وعروة وعفراء .. والبحتري وعَلْوة .. وابن أبي ربيعة والثريا ...

— والجمل ؟

— هو رفيق القديم ، أحبه ويحبني وبساقي صبره صبري ..

— على أي شيء تصبرين ؟

— أصبر على لهيب القدر الذي جاد في بهذه الأرحام المضطرمة.. أنا في رمالي نار تأكل نفسها ! ...

— أقاسية أنت أيتها الصحراء أم رحيمة ؟

— أنا قاسية لأهل الذين يملون الناس ، ورحيمة إذ رضيت بأن أكون الصحراء لتبقى لك الروضة تستلذها ، وليبقى لك الماء تستطيبه ... ألا ترى أنه لولا شبح الليل لم يكن لشعاع النور معناه ... إن القدر أقامني رحمة بك ... لقد بسطني لتطوى مراحلك في الحياة طاوياً ...

— كيف أنت والشعر ؟

— إن رمالي جاءت (ببحوره) . لقد عرف الشعر نفسه في جاهلي ... أنا امرؤ القيس والأعشى وزهير والنابغة والأخطل وبشار وأبو نواس وعمر بن أبي ربيعة والمتنبي والبحتري وأبو تمام والمعري فيلسوف الشعراء وشاعر الشعر .. أنا ألف عبقري في ألف جنة خالدة ...

— هذه الرمال فيك ، ما هي ؟

— هي حبات قلبي ...

— ماذا تعلمين أيتها الصحراء ؟

— إذا شققت قلبي تكشف لك عن ينبوع تظله شجرة ..

— أتريدين أن تكوني الغابة الغبياء ؟

— ويلك يا شاعري أرحني من وطأتي .. إجعلني في خيالك أشجاراً خضراء لأستريح فيك ساعة من الزمن .. إرحمني يا ابن الخيال فأنا أرضي قاحلة موحشة ... غذني بعسائك وارفعني إلى سمائك .. دعني أتنشق هواء الجبال وعبير الرياض .. ألقني في مملكتك قمة لجبل أو فماً لينبوع أو نهراً في جنة ..

إرحمني أيها الشاعر واستر عُريي .. إرحمني .. أنا امرأة تحلم بالينابيع والظلال .. لقد تعبت من رمالي .. أنا قتيلة الشمس التي لا ترحمني .. أنا ظمأى ظمآى افتش عمن يبرد الظماء ..

— ظمآى ؟ .. ولكنك سقيت التاريخ كؤوساً من الشعر والخمر قل أن مر على شفتيه مثلها ... إنني أخاف إذا ما تخليت عن رمالك للماء والشجر أن تضيعي شاعرك العظيم وتأرك الخالد وروحانيتك المضطرمة وأحلامك الكبار وإلهامك البديع ..

— إن ظمأك هو الذي سقى الناس ، ونارك هي التي جاءت بأجرأ وثبة دهش لها التاريخ .. إن سرك في الرمال فلم تفتشين عن الظلال ؟ أنت تائهة أيتها الصحراء كالحالمين التائهين فيك ... إذا كانت شمس تقتلك فالقمر الذي يغمرك بنوره قد أحياك ... وإذا كنت بعدت عن ضجيج الناس فقد اقتربت من الخالق ... أنت الحالم فلا تظلميه .. أنت للأحرار المستقلين فلا تقيدي نفسك بحجر أو شجر .. أنت أرحامك حر ولكنك امرأة ولود ، وإن في رياحك روحاً وفي ضلالك هدى بنير السبيل .. ليس الرواء كله في الماء ، وليست الثمرة كلها في شجرة ، فإن في وهج وحيك ألف بلسم لألف جريح ، وفي خصب خيالك من الأشجار ما تضيق عنه ألف غابة كثيفة .. أنت للملهمين فلا تستري أفكارك بالأوراق ، وللروحانيين فلا تحجبي جمال الأرواح بما يقف بينها وبين أعينها .. لا تلبسي الثوب مهما يكن لونه ونسيجه .. أنت امرأة عريانة ولكنها في عريها تكسو الشعراء والحالمين .

راجي الراعي

صور من الحياة :

يوم عيـــــد ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

ما أشد وقعك – يا يوم العيد – على نفسي ، لأنك قذى في عيني وشجى في حلقي وأسى في قلبي ! فالدار خاوية من الأحباء تلفظني في غير هوادة ولا لين ، والطريق خلو من الرفيق يدعني إلى غير غاية ، والنفس خواء إلا من خطرات الحزن وخلجات الأسى ، والقلب يحس لذع الوحدة فيلمس الجدب والإمحال فيما حوله وإنه ليرى الدنيا أمامه تموج بالزهر النضير والفرحة المترفة والصيت البرئ والثوب الجديد . وهؤلاء أقاربي قد حبوني بالجفوة والقلى ، فرّق بيني وبينهم نهم المال وجشع الذهب فما أرى فيهم إلا العداوة والبغضاء وإلا الازورار والعبوس ، وأخي ... أخي الذي أحبه قد أوصد بابه من دوني لأنه أراد أن يكون واحداً من ذوي قرابتي . أما زوجي فقد فزعت عني لاختلاف في الرأي والثقافة وتباين في المشرب والبيئة ، فخلعت رشدها واستنامت إلى حماقتها فطارت إلى دار أبيها لتذرني وحيداً في يوم العيد . وأبنائي أين هم ؟ إنهم لم يدرجوا – بعد – في فناء الدار فتمتلىء بهم حياة وبهجة ، ويطفح قلبي نوراً وضياء ، وتزخر نفسي هدوءاً وسكينة .

وجلست إلى نفسي أشكو بثي وأنا أشرف على الناس من حولي وهم يضطربون في لجة العيد ، يرفلون في الجديد ويتداعون إلى البشرى ويتمترون في المرح . ووجدت لوحدتي حرقة ضاقت لها نفسي فترقرقت العبرات في محجري تريد أن تنهمر ... وشجاني الخزي على أن أكون رجلا لمت في فوديه شعرات بيض علامة الرجولة والعقل ، وتألقت في رأسه فلسفة الحياة ، وكابد حلو العيش ومره ؛ ثم استخذى لهذه الخواطر أو انميـّد للضعف الإنساني وآذاني أن أستسلم للوحدة تصفعني مرة وتعركني مرة ثم لا أستطيع أن أفلت من بين مخالبها وإنها لتعصرني عصراً .

وأعيت بشجاعتي فطرت عن الدار علّي أجد السلوى والراحة أو أجد متنفساً من هموي أو أنفض عن نفسي الشجن ، فألفيت – آخر الأمر – ملجأ في مقهى من مقاهي القاهرة .

* * *

وفي المقهى جلست إلى فنجان القهوة والسيجارة أتحدث إليهما حديث عبرات ضئيل لم أطعم لذته بعد ولكني أدفع ثمنه قطرات من دمي الحار أزفها يوم العيد من خلال هموم تتوزعني فلا تذرني إلا حطاماً . وغرقت في خضم الفكرة فاستوت على مشاعري فما أحس ما يدور حولي شيئاً . وغبرت ساعة فما أفزعني عن شواغل نفسي غير رجل يطلب صدقة .

وفي مقاهي القاهرة مفزعات تتغنى عنها الحكومة فتنطلق من مكامنها في وضح النهار لتزعج الآمن في جلسته وتقطع عليه خواطره وتؤذي نفسه ... مفزعات منها ماسح الأحذية وبائع أوراق النصيب و... والشحاذ . ليت الحكومة تعرف أن القهوة مثابة يستجم فيها المرء من عناء أو يستريح من نصب ، وليتها توقن بأن هذه الزمر من المفزعات وصمة في جبين البلد لا تستطيع يد أن تمتد إليها فتمحوها إلا يدها هي ، ليتها تعلم ، ليت ...

واستقر الرجل إلى جانبي لا يريم فرفعت بصري إليه أنظر . وعجبت أن رأيت أمامي شحاذاً في ثوب العيد وسمته ، لعله أراد هو أيضاً أن ينعم بفرحة العيد وسعادته ! وهو رجل قد تخطى عمر الكهولة فبدا عليه أثر الضعف والهزال ، ولكنه يتجمّل للأيام فهو حليق الذقن مفتول الشارب تفوح منه رائحة عطر خفيفة لا يتنشاها إلا من أصاب قوة في حاسة الشم ، وهو يرتدي بذلة أفرنجية أنيقة قريبة عهد بالمكواه ، وقميصاً أبيض ناصع البياض يزينه رباط رقبة أسود جميل ، ويتألق على رأسه طربوش أحمر قان ، وحذاؤه لامع نظيف .

ووقف الرجل بإزائي في أدب يسأل في هدوء ويطلب في خضوع رغم أنه شديد الإلحاح صفيق الوجه . وراعني أن أرى هذا الرجل في زيه وهندامه يتكفف الناس في غير حياء ولا خجل ، ولكن نفسي حدثتني قائلة « لعله ما ترى بقية عز باد منذ زمان ! » فحبوته ببعض عطاء ثم صرفته في لين .

ونظر إلى النادل – وهو يعرفني منذ سنوات – نظرة ذات معنى وابتسم حين رآني أنفح هذا الشحاذ الأنيق بشيء من المال . وراعني ما رأيت من النادل . فقلت لعل في الأمر حادثة أو متعة ، فناديته أريد أن أكشف عن الخبر ، فقال : « أفلا تعجب

دراهمك — يا سيدى — لفقير تقتله الحاجة ، أو مسكين تلح عليه الفاقة ! » قلت : « ولـكن الرجل يسأل الناس ، فما باله ؟ وإنى لأراه جميـل الهيأة ، أنيق الظاهر ، يسرى فى عروقه دم الشباب ، وأن يلغ سن الشيخوخة ؟ » قال : « إن له حديثاً » . قلت : « هات » . فقال : هـذا رجل واهى الرجولة ، ساقط الإنسانية ، وضيع الـكرامة ، وهو شحيح النفس ، كز اليد ، بخيل الجبلة ، يقضى نهاره بين مقاهى القاهرة يتكفف الناس فى أدب ويـألهم فى ذوق ، يموّه عليهم بخضوعه ويزوّر بمسكنته ، يتخذ من ذلك مهنة يزجى بها الفراغ ، وعملاً يقتل به الوقت ، فلا يأوى إلى داره آخر النهار أو أول الليل إلا وقد امتلأت يده وفاض بجيبه ، ثم هو يحرم نفسه من كل ما أصاب فيقنع باللقمة ويرضى بالـكسرة ...

ولقد كان موظفاً فى الحـكومة أحيل على المعاش لبلوغه سن التقاعد ، سن الـستين . والحـكومة تلفظ الموظف حين يصيبه الكلال من أثر الـكبر والشيخوخة ، ولا تطرده إن انحلت أخلاقه واتّضعت كرامته وتمزقت إنسانيته . وهى تطلب من ذى العمل الشريف أن يحصل على رخصة ، فترهقه فى الطلب وتسـد عليه المسالك وتضيق الخناق ، ثم تذر صاحب المهنة الوضيعة يتقلب فى الشوارع كيف يشاء . وهى — دائماً — تزعج التاجر فى متجره أو الصانع فى مصنعه ، تكلفه الشطط وتحمله الرهق ، على حين تطلق العنان للشحاذ يستلب الناس من أموالهم فى غير رقبة ولا حذر . إن أخى — يا سيدى — خيّاط ، دفعه الأمل إلى أن يفتح دكاناً عسى أن يصيب منه قوت عياله ، وطمع أن يدر عليه أخلاف الرزق بعد عسرة ، فأعطت عليه وزارة الصحة ومصلحة العمل فى وقت معاً ، حتى أرغمته على أن يغلق الدكان بعد أن سار شوطاً فيه التوفيق والنجاح . فماذا ترى ؟ لعل الحـكومة تريد أن تقول للعامل الشريف : كن عاطلاً . وتقول للشحاذ : تمتع كيف تشاء !

هذا الرجل أحيل على المعاش ، وإن دخله ليربو على خمسة عشر جنيهاً ، وله زوجة وأولاد . فلما أحيل على المعاش سوّل له خرف الشيخوخة أن يطرد زوجه وأولاده ثم ينطلق هو فى نواحى القاهرة يتكفف الناس ، فطرد أولاده جميعاً وإن فيهم الصبى واليافع ، ألقى بهم إلى الشارع ليذوقوا مرارة الحرمان وحرقة الفاقة ولذع الضياع ، ولفظتهم المدرسة حين لم يجدوا ثمن العلم ، وفيهم الذكى المجتهد والسابق المتفوق ، ورآهم هو على حالهم هذه فلم ينبض قلبه برحمة ولا خفقت نفسه بشفقة . ثم غوى مرة أخرى فطرد زوجه وهى عجوز انهد كيانها وذوى عودها ، وهى فقيرة لا تجد ما تتبلغ به إلا دريهمات يقدّمها وقف . والوقف يملك ضـائع وقع بين فكين شديدين : ناظر الوقف وهو رجل لا يرتدع من دين ولا يرعوى من ذمة ، يثقل الوقف بما لا يطيق ، ثم يزعم بأن الأرض لا تغل شيئاً . ووزارة الأوقاف وهى ترقب فى غير رعاية وتحاسب فى غير دقة ، والمستحق يقف ببابها مثلما يقف الشحاذ فيه الحياء بباب كز شحيح فلا يظفر إلا بالشتيمة والطرد ... يقف دهراً لينال فضلة من مال لا تسمن من جوع ولا تغنى من عرى ... أما هو فهو كما ترى ...

***

وتركنى النادل وإن الأفكار لتصطرع فى خاطرى من أثر حديثه ، وأصابنى الجزع أن تثور عاقة مملوك عجوز تلق بصبية صغار إلى عرض الشارع ، تضربهم الفاقة وتصفعهم الحاجة وقد فقدوا — على حين فجأة — عطف الأب وحنان الأم وسعادة العيش فى وقت معاً ، وأن أرى زوجة عجوزاً تضطرب فى غمرات الكرب تأسى على تاريخ طويل كانت تنعم فيه براحة الضمير فى الدار ، وبهجة القلب فى الأولاد ، وعز الحياة فى الزوج . وآذانى أن يكفر هذا الرجل بحق زوجته وهى رفيقة الصبا وصديقة الشباب وعمود الأسرة ، وأن يجحد فضلها وهو قد قضى عمره فى كنفها ينعم بالهدوء والطمأنينة ، وأن ينسى أن الأسرة معنى من معانى الإنسانية السامية لا ينزع عنها إلا الأحمق والمجنون !

أفأمن الرجل أن تتدفق عليه بلايا الأيام أو أن تنصب عليه مصائب الزمن ، فتذره حطاماً فى ناحية من حجرة يقاسى العنت والشدة ، ثم لا يجد الأسى فى زوجته ولا العون فى أولاده ؟

ولـكن ... آه ، إن فى الناس وحوشاً ضارية لا تشبع إلا أن تلغ فى دم الإنسان ، وأن تنهش لحمه ، وأن تفرى عظمه !

يا لقلبى ! لقد فزعت من دارى لأنفض عن نفسى هماً واحداً فرجعت بهمين : هى وهمّ هذا الحيوان المفترس الذى يتكفف الناس فى غير حياء ولا خجل !

فما أشد وقعك على نفسى ... يا يوم العيد !

كامل محمود حبيب

من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامـــــة ! ...

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ١ —

اسم هـذا الظريف زَنْد بن الجَوْن ، و « أكثر الناس — كما قال صاحب الأغاني[1] — يصحف اسمه فيقول : « زيد » بالياء ، وذلك خطأ ... إنما هو زند بالنون » . وإنما سلكناه في عداد الظرفاء العباسيين — مع أنه أدرك في شبابه آخر عهود بني أمية — لأنه لم يكن له في أيامهم نباهة ، ولم يذع له في عصور خلفائهم صيت ، فما نبغ واشتهر إلا في أيام بني العباس ، إذ انقطع إلى أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور والمهدي ، فكانوا يقدمونه في الجامع ، ويصلونه أحسن الصلات ، ويستطيبون مجالسته ، ويستعذبون نوادره[2] .

وإذا كانت المراجع التي بين أيدينا لم تلق ضوءاً كافياً على مولد هذا الظريف ، ففي وسعنا أن نستنبط ذلك من خلال السطور ، فهو لم ينسب إلى الكوفة إلا لمولده فيها أو نشأته بها على الأقل . وهو — بلا ريب — لم يدرك آخر أيام بني أمية طفلا لا يعي شيئاً لأننا سنرى في نوادره وطرائفه ما يشير إلى أنه بلغ سن الشيخوخة بعد أن عاش في ظلال الدولة العباسية وحدها تسعة وعشرين عاماً : إذ حضر خلافة السفاح التي دامت أربع سنوات وتسعة أشهر[3] ثم خلافة المنصور التي دامت اثنتين وعشرين سنة هلالية إلا ستة أيام[4] ، ثم شهد من خلافة المهدي ما يقارب ثلاث سنوات توفي على أثرها سنة إحدى وستين ومائة[5] .

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ١٠ ص ٢٣٥ طبعة دار الكتب المصرية

(٢) في المرجع ذاته ، الصفحة ذاتها وفي معجم الأدباء لياقوت ج ١١ ص ١٦٦

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) الخضري ص ٧٣ الطبعة الثالثة . (٤) المرجع ذاته ص ١١٧

(٥) معجم الأدباء ج ١١ ص ١٦٦ . وقد وقع سهو في هذه الصفحة يحسن التنبيه إليه ، فيها أن أبا دلامة مات في خلافة المهدي سنة إحدى وستين ومائتين ، مع أن المعلوم أن المهدي نفسه مات سنة تسع وستين ومائة

ولكي نقبل أنه بلغ سن الشيخوخة يحسن بنا أن نفترض أن أبا دلامة ولد بين سنة مائة — ومائة وخمسة ، فقضى طفولته وصباه وشبابه حتى بلغ الثلاثين — أو الخامس والعشرين — في أواخر العصر الأموي ثم أمضى ما بقي من عمره في أيام السفاح والمنصور والمهدي .

ولم يوصف لنا أبو دلامة بأكثر من أنه كان أسود ، بيد أنه اضطر — مرتهناً — في مجلس حافل إلى وصف خلقه بشعر يجعلنا موقنين بأنه كان على جانب من الدمامة عظيم :

دخل على المهدي يوماً وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم . فقال له المهدي : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك — وفي رواية لأضربن عنقك — فنظر إليه القوم ، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ... قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزمة من عزماته لابد منها ، فلم أر أحداً أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ إليك أبا دلامه ... فليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قرداً ... وخنزيراً إذا نزع العمامه

جمعت دمامة وجمعت لؤماً ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامه

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا ... فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه[1]

وما أحسبه رضي أن يسلك هذا المسلك في هجاء نفسه لمجرد التخلص من هذا الموقف الحرج الذي أوقعه فيه الخليفة المهدي ، فقد كان في مكنته أن يحسن التخلص بما لا يؤذي نفسه أو يجرح كرامته ، ولكن هـذا النوع من الناس قلما يكترث بتلك المظاهر التي يقيم لها المجتمع أكبر الوزن ، لأنه — لشدة صراحته — يصف حقائق نفسه مكشوفة مفضوحة .

ولو ظننا أبا دلامة مغروراً يحسب أنه في الجمال بدر مشرق وهو مشوه كالقرد ، قذر كالخنزير ، فهل يمنع غروره الناس من وصفه بأنه جمع الدمامة كلها مادامت أعينهم لم تكن تقع منه إلا على رأس كرأس الدب في ضخامته ، وعيون كعيون الحرباء

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٨ .

من الضيق ، وأنف فارض[1] في احديداب ، وشفتين منتفختين من الغلظ ، وعلى جسم مكتنز على قصر ، وذراعين مرتخيتين من الشحم ، وساقين متوسـتين في تعوج ... وليس الناس عمياً فيحتجب عنهم هذا الجمال الساحر في تقاطيع هذا الخلق العجيب!

لكن أبا دلامة كان من الدهاء بحيث لم يفسح للآخرين مجالاً لوصف خلقه والشماتة به والضحك منه فأظهر الناس على حقيقة نفسه ليقطع عليهم سبيل السخرية اللاذعة التي تجد في دمامة المخلوق باعثاً على مواصلة التهكم والازدراء .

وهذا الأسلوب الذي نهجه أبو دلامة في إظهار الناس على مدى بشاعته وفر عليه كثيراً من مفارقات غلاظ القلوب ، ومن سخافات صلاب الأفئدة ، إذا ما كانوا ليجدوا في هجائه وصفاً ملائماً أعنف من وصفه .

والإنسان إذا سمع ما حكم به على نفسه رضي بحكمه ، وإن سمع ما حكم به عليه سواه لم يرضه منه إلا ما يتفق مع عزته ، ولا يتنافى وكرامته .

والذي يعنينا مما سبق أن هذا الظريف قد جمع إلى سواد لونه دمامة شكله ، ولكن الله عوضه من هـذا النقص لساناً حلو الحديث ، رائع البيان ، قوي البرهان .

ونعرف أنه كان مولى لبني أسد ، فقد كان أبوه « جون » عبداً لفضافض الأسدي الذي أعتقه . فمن نسب أبا دلامة إلى بني أسد فإنما يقصد أنه كان أسدياً بالولاء . وكذلك نتسامح مع الذين وقعوا في هذه النسبة خطأ أو عفواً كأبي حيان التوحيدي في كتابه « الامتاع والمؤانسة »[2]

وإن الباحث لتأخذه الحيرة إذا ما استعرض حياة هذا الظريف إذ يتساءل كيف أمضى شبابه — حتى أواخر العصر الأموي — مغموراً لا يحس به أحد ، ولا يعرف له شعر ، ولا يطير له ذكر ؛ ثم وثب إلى الشهرة فجأة في أيام السفاح والمنصور والمهدي ، فأصبح ينادمهم ويداعبهم ولا يكاد ينقطع عن مجالسهم !

(١) الفارض من الأنوف الطويل .

(٢) ج ٣ ص ٢٤ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد صحح هذا الكتاب وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين

فأين كان قبل اتصاله بأبي العباس السفاح ؟ وأين ومتى وكيف تلقى العلم ؟

كل هذا مما أغفلته المراجع كأنها لا ترى فائدة في الإشارة إليه .

ونحن نحاول أن نرجح — على الأقل — أصوب الأجوبة على الأسئلة المتقدمة : فأبو دلامة كان في بلده « الكوفة » قبل اتصاله بالخلفاء العباسيين ، ولم يكن من السهل على مثله أن يتصل بمن كان قبلهم في قصر الخلافة بدمشق لبعد الشقة من ناحية ، ولانشغاله بتحصيل شيء من العلم وكسب قليل من القوت من ناحية أخرى ، ولأنه أيقن بأن بضاعته المنادمة والمداعبة ، وأن مثل هذه البضاعة مزجاة في أواخر أيام بني أمية التي كانت بركاناً يثور ، وزلزلة لا يقر لها قرار .

أما الأشخاص الذين طلب عليهم شيئاً من العلم فلم يكونوا من نباهة الذكر بحيث يفردهم الرواة من قبلنا أو نفردهم من بعدهم بالتخصيص ، بل لنا أن نحكم بأن أبا دلامة لا رواية له ، لأن معلوماته ليست نصوصاً تنقل ، وإنما كانت فكراً نابعة من ذكائه الوقاد ، وبديهته الحاضرة التي كانت تأذن لمن يسمعه أن يظن أنه على جانب من العلم عظيم !

والحق أن أبا دلامة كان من هؤلاء الظرفاء الذين عرفوا بخفة الروح ، ورشاقة النكتة ، ولطف الدعابة ، لا عن علم محفوظ ، ولا عن سند مقبول ، ولا عن استنباط للأصول . غير أنك إذا تلوت أشعاره طالعتك فيها قوة في السبك ورصانة في التعبير ، فتغزو قلبك الحيرة وتميل إلى الظن بغزارة علمه ، فنوفر عليك حيرتك ونؤكد لك أنه بلغ هذا كله بمواهب فطرية لا باجتهاد عمل ، فقد كان مطبوعاً على الشعر في سليقته ، يرسله متى شاء دون توقف ولا انقطاع .

* * *

وأظنك راغباً في معرفة سبب اشتهار هذا الظريف بأبي دلامة إذ تجد في هذه الكنية شيئاً من الطرافة ، والأمر أهون من هذا طرافة كنيته دعت إليها السدنة المحضة التي وهبته ولداً سماه « دلامة » لأنه « كني باسم جبل بأعلى مكة يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية » كما روى الأصبهاني في أغانيه[1] ذاهلا عن تصريحه — في مواضع من ترجمة هـذا

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٧

الظريف — يذكر اسم ابنه « دلامة » وضروب عبثه مع أبيه ا

ومن النوادر التي صرح فيها أبو الفرج بذكر دلامة بن هذا الظريف — قصة نذكرها على سبيل المثال، ونقرأ فيها — في الوقت نفسه — شيئاً من نفسية أبي دلامة وابنه الخبيث :

حجت الخيزران، فلما خرجت صاح بها أبو دلامة . قالت : سلوه ما أمره ؟ فقالوا له : ما أمرك ؟ فقال : ادنوني من محملها . قالت : ادنوه فأدني . فقال : أيتها السيدة إني شيخ كبير وأجرك في عظيم . قالت : فه ؟ قال : تهبين لي جارية من جواريك تؤنسني وترفق بي وتريحني من عجوز عندي قد أكلت رفدي، وأطالت كدي، وقد عاف جلدي جلدها، وتمنيت بعدها، وتشوقت فقدها . فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمر لك بما سألت . فلما رجعت تلقاها وذكرها، وخرج معها إلى بغداد فأقام حتى غرض[1] . ثم دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون، فدفع إليها رقعة قد كتبها إلى الخيزران فيها :

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيـــده
أنها أرشـدها الله وإن كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليـده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلقت لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده

فلما قرئت عليها الأبيات استعادتها منه لقوله « حوت طري في عصيده » وجعلت تضحك . ودعت بجارية من جواريها فائقة فقالت لها : خذي كل مالك في قصري، ففعلت . ثم دعت ببعض الخدم وقالت له : سلمها إلى أبي دلامة . فانطلق الخادم بها، فلم يصادفه في منزله . فقال لامرأته : إذا رجع فادفعها إليه وقول له تقول لك السيدة، أحسن صحبة هذه الجارية فقد آثرتك بها . فقالت له نعم . فلما خرج دخل ابنها دلامة فوجد أمه تبكي، فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت : إن أردت أن تبرني يوماً من الدهر فاليوم . فقال : قولي ما شئت فإني أفعله ، قالت تدخل عليها فتعلمها أنك مالكها وتطؤها فتحرم عليه، وإلا ذهبت بعقله وجفاني وجفاك . ففعل ودخل إلى الجارية فوطئها ووافقها ذلك منه، وخرج . ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية ؟ قالت في ذلك البيت . فدخل إليها شيخ محطم ذاهب، فمد يده إليها وذهب ليقبلها . فقالت له : مالك ويلك ! تنح عني وإلا لطمتك لطمة دققت منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتك السيدة ؟ فقالت : إنها قد بعثت بي إلى فتى من حاله وهيئته كيت وكيت، وقد كان عندي آنفاً، ونال مني حاجته . فعلم أنه قد دهي من أم دلامة وابنها . فخرج إليه أبو دلامة فلطمه ولببه[1] وحلف ألا يفارقه إلا عند المهدي . فمضى به ملبباً حتى وقف على باب المهدي فعرف خبره وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة فأمر بإدخاله . فلما دخل قال له : مالك ويلك ؟ قال : عمل بي هذا ابن الخبيثة ما لم يعمل ولد بأبيه، ولا ترضيني إلا أن تقتله . فقال له ويلك ما فعل ؟ فأخبره الخبر . فضحك حتى استلقى ثم جلس . فقال أبو دلامة : أعجبك فعله فتضحك منه ؟ فقال : علي بالسيف والنطع . فقال له دلامة : قد سمعت حجته يا أمير المؤمنين فاسمع حجتي . قال : هات قال : هذا الشيخ أصفق الناس وجهاً، (يلامس)[2] أمي منذ أربعين ماغضبت، (ولامست) جاريته مرة واحدة فغضب وصنع بي ما ترى ! فضحك المهدي أكثر من ضحكه الأول، ثم قال : دعها له يا أبا دلامة وأنا أعطيك خيراً منها . قال : على أن تخبأها لي بين السماء والأرض، وإلا (لامسها) كما لامس هذه . فتقدم إلى دلامة ألا يعاود بمثل فعله، وحلف أنه إن عاود قتله، ووهب له جارية أخرى كما وعده[3]

إنها قصة طريفة كما رأيت، وفيها تصريح بذكر دلامة (ابن شاعرنا الظريف) وتصريح بذكر أم دلامة زوجته الخبيثة فنفهم منها أولا إنما اشتهر هذا الظريف بأبي دلامة كما يشتهر

---

(١) غرض : مل وضجر . ومنه الغرض : الملالة والضجر ، ويأتي بمعنى الشوق

(١) لببه : أخذ بتلابيبه فجمع ثيابه عند صدره واشتد عليه في الخصومة

(٢) اللفظ ، في الأغاني ، مما نتره القلم عن التعبير به ، وإنما تأدب بأدب القرآن (أو لامستم النساء) .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٢٦٢

الآباء عادة بأبنهم البكر ، لا لشيء آخر ، ونفهم منها — وهو الأهم — شيئاً من نفسية هذا الظريف وابنه وزوجته .

فأما أبو دلامة فجريء يتدلل على أهل الخليفة ، ويستبيح بالخيزران ويطلب ما يريد في غير ما خجل ، ويستبطئ الوعد فيؤكد غرضه بشعر يفيض بالدعابة حتى يجاب طلبه ، فترسل إليه تلك الجارية الحسناء التي طالما حلم بالوصول إلى مثيلاتها بعد أن مل امرأته التي أقعدها كبر السن عن تمهيد فراشه والقيام على خدمته . وأما دلامة فهو أصدق مثل للولد الخبيث الذي لا يرعى حرمة أبيه ولا يقيم له وزناً ، وإنما يسترسل في إيذائه وتعذيبه ، فيوافق أمه الماكرة على أن ينال حاجته من جارية أبيه كأنه لا يجد خيراً من هذا ليبر أمه . ثم تراه أمام الخليفة المهدي يدافع عن نفسه دفاعاً مضحكا ، فهو لم يقض تلك الحاجة مع الجارية الحسناء إلا بعد أن قضى أبوه مع أمه أربعين سنة ، ويصف مع ذلك اباه بأنه أسمج الناس وجهاً . فما أهون — بعد هذا — جميع الأوصاف التي يلصقها ابن بأبيه ! وأما أم دلامة فيالها من عجوز شمطاء ، سليطة اللسان ، خبيثة النفس ، عرفت الأسلوب الذي تستطيع به إرغام زوجها بما تشاء ، فاستعملت ولدها في إيذاء أبيه . وهكذا ترى أن بيت أبي دلامة جمع أنواع الدعابة وأسباب الظرافة : في الأب والأم والولد ، وكأنما خلق الله كل واحد من هؤلاء الثلاثة لكي ينسجم مع الآخرين ، ولقد كان الانسجام من توثق العرى بحيث أنه جعل ما يصدر من أي واحد منهم مفهوماً للآخرين لا يستغربه أحد منهما وإن أضحك الناس زمناً طويلا .

ولكي يتضح لك هذا الانسجام العجيب بين هؤلاء الثلاثة فتعرف مقدار ما انطوت عليه أنفسهم من خبث ، نأتي على ذكر قصة جديدة فيها بعض ما تريد .

جاء دلامة يوماً إلى أبيه وهو في محفل من جيرانه وعشيرته جالس فجلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إن شيخي — كما ترون — قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظامه وبنا إلى حياته حاجة شديدة ، فلا أزال أشير عليه بالشيء يمسك رمقه ويبقى قوته ، فيخالفني فيه . وأنا أسألكم أن تسألوه قضاء حاجة لي أذكرها بحضرتكم فيها صلاح لجسمه ، وبقاء لحياته ، فأسعفوني بمسألته . فقالوا : نفعل حباً وكرامة . ثم أقبلوا على أبي دلامة بألسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضي وهو ساكت ، فقال : قولوا للخبيث فليقل ما يريد ، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببلية . فقالوا له : قل . فقال : إن أبي إنما يقتله كثرة إتيان النساء فتعاونوني عليه حتى أخصيه ، فلن يقطعه عن ذلك غير الخصاء ، فيكون أصح لجسمه ، وأطول لعمره . فعجبوا من ذلك وعلموا أنه إنما أراد أن يعبث بأبيه ويخجله حتى يشيع ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر ، فضحكوا منه . ثم قالوا لأبي دلامة : فأجب . قال : قد سمعتم أنتم وعرفتكم أنه لن يأتي بخير . قالوا فما عندك في هذا ؟ قال قد جعلت أمه حكما بيني وبينه فقوموا بنا إليها . فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها ، وقص أبو دلامة القصة عليها وقال لها : حكمتك . فأقبلت على الجماعة فقالت : إن ابني — أصلحه الله — قد نصح أباه وبره ولم يأل جهداً ، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوج مني إلى بقائه ، وهذا أمر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت به عادة لنا ، وما أشك في معرفته بذلك ، فليبدأ بنفسه فليخصها ، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أثر عليه أثراً محموداً استعمله أبوه . فنعر [1] أبوه وجعل يضحك به ، وخجل ابنه وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خبثهم جميعاً واتفاقهم في النصب [2] .

وللقوم الذين شهدوا هذه المحاورة التي تضحك الثكلى أن يعجبوا ما شاءوا ، ولهم أن يروا فيها دليلا على خبث الثلاثة واتفاقهم في مذهب العبث والمجون ، فقد رأينا فيها ولداً يخجل أباه ، وأماً تخجل ابنها ، وأباً يوزع خبثه على الاثنين ، فيسمع كلام ابنه غير غبي ولا متناب ، ثم يحتكم إلى زوجته احتكام العالم بما ستقوله ؛ لأن عبث ابنه يتألما كما يناله .

ومن هنا نرى أن أم دلامة — وإن كانت تحب أن تخجل زوجها في بعض الفرص — لم تكن لتخذله دائماً ، فهي تحبه على ما فيه من عبث ومنقصة ، وهو يثق بها في تمام ما يعجز عن إتمامه بنفسه ؛ لأنه عرفها وعرفته ، واستطاع كل منهما أن يستكمل بالآخر مواضع نقصه ، ونقط الضعف فيه !.

(يتبع) صبحي إبراهيم الصالح

(1) نعر : صاح وصوت بخيشومه
(2) الأغاني ج ١ ص ٢٢٢

أساليب التفكير :

فلسفة الشعب

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى

اعتذار :

منذ أكثر من شهرين كنت أتحدث إلى قراء الرسالة عن الأسلوب الفلسفى فى التفكير ، وكلى عزم أن أواصل الحديث حتى يكتمل ؛ ولكن شئون العيش ، وشجون الحياة ، وهموم العمل الرتيب ، وفوضى المعاملات الإنسانية ، تحرم المفكر نعمة التأمل ، وتسلبه صفاء الذهن ؛ فلا يعود يعمل إلا كما تعمل الآلة ، ويمضى فى غمار الحياة اليومية كما تمضى قطرة الماء فى خضم التيار : مسلوب الإرادة ، فاقد الوعى ، خامد الحس ، موزع النفس . وهل من سبيل إلى التفكير المشرق الصافى ، ما لم نكن بمنجاة من عمل مرهق يأخذنا من جميع أقطارنا ، وما لم نهتد إلى فرجة من وقت نتسلل من خلالها إلى الوطن العزيز : وطن الفكر المقدس ؟ والمثل اللاتينى يعزينا بقوله : « عش أولاً وتفلسف بعد ذلك » .

لا مفر من الفلسفة :

انتهينا فى مقالات سابقة إلى أن أداة التفكير الفلسفى هى العقل ووسائله الخاصة : من تجريد إلى حكم إلى استدلال إلى برهان . ولما كانت هذه الوسائل فى متناول كل إنسان — أيا كان ذكاؤه وأيا كانت ثقافته — لم يكن مناص من أن يتفلسف الناس جميعاً ؛ وإن كانت الانفعالات والأهواء تتدخل أحياناً فتفسد ملكة الحكم السليم ، وتطمس إشراقة الذهن ، فليس ذلك بمنكر وجود القدرة على التفكير الخالص . إن ومضات الفكر قد تنبثق فى لحظات لدى أجهل الناس ، كما أن ضياء العقل قد تكتنفه سحب الانفعال أحياناً لدى أعمق المفكرين . وقد كان إمامنا سقراط يؤكد هذا المعنى فيخاطب العامة والخاصة على حد سواء ، ويدعو إلى فلسفته فى عرض الطريق ، وفى الأسواق ، وفى أروقة المحاكم كان يناقش الصبى الغرير ، واليافع البحاثة ، والمثقف المتحذلق ، موقناً أن الجهل عرض زائل ، وغشاوة تنجاب بشئ من الجهد والإخلاص ، حتى ليذهب إلى أن الصبى الصغير يمكنه بقليل من التوجيه والإرشاد ، أن يستنتج جميع مبادئ الهندسة التى وضعها إقليدس الرياضى . وكان منهج ديكارت « أبو الفلسفة الحديثة » يقوم على أساس أن العقل « أعدل الأمور قسمة بين الناس ، وأنصبة الناس منه متساوية . . »

قد يعجز الناس فى عصر من العصور عن فهم ما يكتبه فيلسوف من الفلاسفة ، بل قد يرمونه بالخلط والالتواء فى التفكير ، ويسخرون منه ، وينالون من عقليته . وعندى أن ذلك لا ينهض دليلاً على استحالة فهم الناس لتلك الفلسفة ، إنما مرده إلى قلة حظ هؤلاء من الثقافة ، وعدم اعتيادهم التعمق فى التفكير وخشيتهم من كل جديد يزلزل عقائدهم فضلاً عن كون الفيلسوف يعمد أحياناً إلى التعبير فى غموض عن أفكار تخطر ببال كثير من الناس العاديين ، ويستخدم أسلوباً فنياً مشحوناً بالمصطلحات الغريبة عنهم ، فيقيم بذلك بينه وبين أذهانهم سداً منيعاً . ولذلك كانت لا تكاد تمضى حقبة من الزمن ، يكون الشراح قد تناولوا فيها إنتاج الفيلسوف بالشرح والتفسير ، وتكون العقول قد نضجت بعض الشئ ، والأفهام تهيأت بقبول ما نبذت ، فإذا المجنون عبقرى خالد ، والمارق قديس متبتل ، ومذهبه عقيدة راسخة . وقد كان الفيلسوف الألمانى « عمانوئيل كنت »[1] يقول : « جئت بمؤلفاتى قرناً قبل موعدها ، ولن تفهم إلا بعد مائة سنة ، وحينذاك ستقرأ كتبى وتقدر قدرها . » وقد صدقت نبوءة الفيلسوف العظيم فلم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان فى كل قطر من أقطار أوروبا مدرسة فلسفية بأسرها تستمد مبادئها من فلسفة كنت .

الفيلسوف إنسان :

إن الفيلسوف لا يأتى بدعاً ، ولكنه يرى ويسمع ، فيحكم ويستنتج ؛ وما يراه وما يسمعه أمور تقع تحت بصر الناس وسمعهم ، وملكة الحكم أو ملكة الاستنتاج ليست وقفاً عليه ، فالناس جميعاً يحكمون ويستنتجون ؛ ولكنه أدق منهم حساً ،

(١) من فلاسفة القرن الثامن عشر ، اشتهر بالعمق والغموض .

ولديه من الفراغ والذكاء والصفات المزاجية ما يكفل له التعمق في تأملاته ومزاولتها أغلب الوقت ، والانشغال بمحاولة فهم الكون من كل ما عداها من شئون الحياة الجارية . ناهيك بقدرته على التجرد من أهوائه ، والوقوف من حوادث الكون موقف المحايد : لا تعنيه التقاليد الموروثة والآراء الشائعة ، إن تعارضت مع العقل . وكل امرىء بمقدوره ذلك ولو في فترات متقطعة عبر حياته . ويمكننا كربين أن نعود النشء كيف ينتزع نفسه – زمناً ما – من استغراقه في تيار الحياة اليومية ، وكيف يستخلص العبر العامة من حادث مفرد ، وكيف يتجرد من عواطفه ، ويتجرد من تأثير غيره ليحكم في نزاهة ، وينقد في جرأة ، ويسمو فوق المشاغل الجزئية التافهة . لست أقصد بطبيعة الحال أن الناس جميعاً فلاسفة ولكنني أقصد أن كل امرىء بمقدوره أن ينتهج في حياته نهجاً فلسفياً ، وأن الفيلسوف لا يفضل الفكر العادي إلا في الدرجة ، وأقصد علاوة على ذلك ما قصده أرسطو بقوله : « إذا لم يلزم التفلسف فلنتفلسف أيضاً لنثبت عدم لزوم التفلسف . »[1] أي أن المرء ليس بوسعه إلا أن يتفلسف ما دام كائناً في عالم دائب الحركة ، زاخر بالتطورات والمشاهدات والمفارقات . كل ما يقع عليه البصر يثير العجب والدهشة ، ويستفز نزعة الاستطلاع الكامنة في تحفز . هو لا يستطيع أن يقف موقف المسجل لهذه الظواهر فحسب ، فعقله دائب التساؤل ، وهو قلق ما لم يصل إلى تفسير لما يرى ، وتصور معقول للكون في مجموعه أو في ناحية من نواحيه . وهو إذا ما ساغ نظرية ما ، هدأ القلق ، وحقق – إلى حين – الطمأنينة العقلية التي لا غنى عنها للمضي في رحلة الحياة .

قد تكون النظرية التي يفضي إليها تفكير المرء خاطئة أو قاصرة ، ولكن ذلك لا يقضي على قيمتها من حيث أنها كافية لإعادة الأمن العقل إلى نفسه القلقة ، والتعلل بها حتى يهتدي لتفسير نهائي . وإذا كان الإنسان عاجزاً عن الوصول إلى تفسير نهائي ، فلا يبرر ذلك أن تنكر الفلسفة أو تمتنع عن التفلسف كما حدث لبعض المفكرين : شككوا في قدرة العقل الإنساني ، ويئسوا من بلوغ الحقيقة كاملة ، فارتموا في أحضان التصوف ،

(١) في الميتافيزيقا .

ومنهم من آثر الجهل على علم ناقص[1] .

يذكرني ذلك بالنقاش الطويل الذي احتدم بين سقراط – إبان إعدامه – وبين تلامذته حول الروح وخلودها . يعترف سقراط بعد إيراد الأدلة على وجود الروح وعلى خلودها ، وبعد موافقة تلامذته عليها ، بصعوبة المسألة وعدم جواز القطع برأي نهائي بصددها . حينئذ يتشجع أحد الحاضرين ، « سيبيس » ، ويقول قولاً حكيماً : « يبدو لي يا سقراط ، كما يبدو لك ، أنه من المستحيل ، أو بالأحرى من العسير جداً ، بصدد هذه الأمور ، أن نعرف الحقيقة في حياتنا هذه . ومع ذلك ترى من الجبن ألا نفحص بعناية فائقة كل ما أسلفنا قوله ، وأن ندع جزءاً دون بذل قصارى جهودنا : ذلك أنه لا مناص من أحد أمرين : إما أن نعلم الحقيقة من غيرنا وإما أن نكتشفها بأنفسنا ؛ فإن استحال كلا الأمرين فلنتخذ من الآراء الإنسانية أقومها وأبعدها عن التفنيد ، ولنتخذ هذه الآراء كما نتخذ زورقاً يعبر بنا ، مخاطرين ، هذه الحياة حتى يتيسر لنا أن نعبرها على نحو أسلم وأقل تعرضاً للخطر[2] ...

أجل إن لكل نظرة فلسفية قيمتها ، وليس يقدح فيها بعدها عن الصواب أو قصورها عن مطابقة الحقيقة ، ما دامت ضرورة حيوية لتهدئة توتر الذهن عند ما يعجز عن حل مشكلة من المشاكل . وعلى هذا الأساس يحق لي أن أتحدث عن فلسفة شعبية تنطوي عليها حياة عامة الناس ، وقد يصرح بها نبهاؤهم قولا كما سنبين :

فلسفة الخير والشر :

رجل الشارع إذ يقول : « كله فان » إنما يركز في لفظين اثنين مذهباً فلسفياً شافياً ملأ أسفار كثير من فلاسفة الأخلاق؛ لم يستمده من بطون الكتب ولا هداه إليه معلم ، إنما هي مدرسة الحياة بتجاربها تمده بالعرفان ، وملكة الحكم السليم : « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » تهديه إلى نظريته . إنه يستقري الحوادث والكائنات ، ويلمس انتهاء حياة كل كائن إلى الموت . كل ما يقع تحت حسه ينمو ويزهو ثم يذوي ويذبل . كل حي يدب على البسيطة دبيباً قد يتجاوب صداه في الآفاق ، وينتفض من فرط القوة والحيوية ،

(١) الشكيون الذين عاشوا في القرن الرابع قبل الميلاد .
(٢) محاورة فيدون ص ٦١ من الترجمة الفرنسية بول لمير

ويأتى من الأفعال ما نحمده وما ننكره ؟ ثم إن هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يتلاشى اللهيب ، ويزول الصدى ، وتخمد الحركة وتستحيل السيرة ذكريات لا تلبث أن تتمحى :

أرى الدنيا سوى دار سفار ذات بابين ظلام ونهار
كم وكم من ملك حم الفخار حل فيها برهة وارتحلا
حيث لبى دعوة الناعى المطاع[1]

ذلك مايدور بخلد الناس حينا يخلو إلى نفسه يناجيها ، أو إلى جماعته يؤانسها ، أى حينا ينتزع نفسه من غمار العيش الرتيب ، فيطل على الكون من قمة الفكر التى تشرف على الزمان والمكان، ويتحرر إلى حين من إلحاح الحاجات الجسدية التى تمطل التفكير الخالص ما لم ترتو .

وحكيم الشعب الذى يقضى العمر لا يحمل حقداً أو ضغينة ، ولا يحس إحناً أو سخيمة ، يقدم للناس كل خير فلا يجد منهم غير الحسد ونكران الجميل ؛ تقصد مضجعه خيانة الإنسان لأخيه الإنسان ، وتترك عثرة الناس فى نفسه ندوباً أليمة ، حتى ليعصف به شك فى وجود الخير فى هذه الحياة التى يحياها ، شكاً يعبر عنه غناء فى أسى نبيل :

« يا زارع الودّ هو الود شجرهُ قل
ولا سواق الوداد روحت وماءها قل !! »

وقد يكون لشكه هذا أبلغ الأثر فى سلوكه العملى : إما نقمة وسخط على المجتمع فإعلان الحرب عليه وتلمس السبل للانتقام ؛ وإما عفو وغفران فمضى على الصراط المستقيم لا يرعى فى شئ إلاّ ولا ذمة ، ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً . وهو فى الحالين مبرر سلوكه بفلسفة تثبت فؤاده ، وتؤكد سلامة اتجاهه أمام نفسه أو أمام الناس . فهو فى الحالة الأولى نفعى ، قيمة الفعل الأخلاقى فى نظره رهن بمقدار ما يجلب لصاحبه من نفع وما يدفع من نكر ؛ وهو فى الحالة الثانية مثالى يفعل الخير للخير ، قيمة الفعل عنده لا ترتهن بما يجلبه من نفع ، ولكن بما تحدثه فى النفس من رضى وطمأنينة .

ولو تتبعنا تاريخ الفلسفة لوجدنا كلا الاتجاهين فى الفلسفة الأخلاقية . يمثل الاتجاه الأول طائفة السوفسطائيين الذين قادوا حركة فكرية فى أثينا إبان القرن الخامس قبل المسيح أعلنوا الثورة على العقائد الموروثة ، وسخروا فى جسارة من آلهة اليونان ومضوا فى شكهم حتى تناول قواعد الأخلاق فأنكروها زاعمين أنها بدعة ابتدعها ضعاف النفوس ممن جردتهم الطبيعة من القوة والامتياز، فتوسلوا بالأخلاق والدين للسيطرة على الأقوياء والموهوبين . أما الخير عندهم فهو اللذة ، والسعادة فى إشباع الرغبات والميول التى فطر عليها الإنسان . والواجب يقتضى تحطيم أغلال الأخلاق ، لأنها ابتداع يتعارض مع الطبيعة البشرية ، وعليه فالإنسان كما يقول أحدهم « بروتا غوراس » مقياس الأشياء جميعاً ... « فالأشياء هى بالنسبة إلىّ على ما تبدولى ، وهى بالنسبة إليك على ما تبدو لك ، وأنت إنسان وأنا إنسان . « أجل : أنا إنسان ، وأنت إنسان — فليمض كل منا وفق هواه ، وليجرد كل سلاحه ، فالقوة فوق الحق والبقاء للأصلح .

وقد أجاد الكاتب الفرنسى « هونوريه دى بلزاك » فى تصوير هذا الاتجاه الوصولى النفعى فى شخص مجرم خطير هو « فوتران » الخارج على المجتمع . يلتقى « فوتران » ذات يوم بشاب هبط باريس يطلب العلم هو « راستنياك » الذى يحمل بين جنبيه نفساً أبية ، وقلباً ذكياً ، وطموحاً نبيلا ، ولكنه مع ذلك كغيره من الموهوبين فى مجتمع منحل يعجز عن بلوغ المجد لأنه وقف على من يضحى بمبادئ الشرف والكرامة . يلقاه « فوتران » وهو على هذه الحال من الألم واليأس والرضا — مع ذلك — بالأوضاع والمقادير فيلقنه فلسفة فى تلك الكلمات : « أتدرى كيف يشق الناس طريقهم فى هذه الدنيا ؟ يشقونه ببريق العبقرية ، أو بالمهارة فى الخسة . يجب أن تسقط فى صفوف البشر كقنبلة أو أن تتسلل بينها كوباء . أما الشرف فلا فائدة فيه »[1] .

تلك فلسفة يتخذها نفر من الناس يؤيدون بها مسلكا عمليا ويبررون بها ثورتهم على مجتمع يرونه ظالماً ، وهى لعمرى تحمل بين طياتها اعتذاراً ضمنياً عن ضلال يحسون فى قرارة نفوسهم مجانبته للصواب . وفى المقال القادم أحدث القراء عن الفلسفة المقابلة ، تلك التى ترى الخير غاية فى ذاته ، والسعادة فى رضى النفس وراحة الضمير ...

(الإسكندرية) عبد المنعم المليجى

(١) رباعيات عمر الخيام ترجمة محمد السباعى

(١) مسرحية « الأب جوريو »

دراســـة الطفل
من الوجهة النفسية الحديثة

للأستاذ فؤاد طرزى المحامى

بعد بحث وتنقيب دام حوالى النصف قرن قدمت لنا صورة عن طبيعة سلوك الطفل تختلف كل الاختلاف عن الصورة التى قدمها لنا الباحثون القدماء فى ميدان التحليل الذهنى . فقد قدم لنا العلماء المحدثون القواعد الأولى التى بنيت عليها الدراسات الجديدة ، وإن النقاط الرئيسية التالية تلخص وجهات النظر الحديثة فى ميدان الدراسات العلمية التجريبية ، فعلم النفس الحديث يقول :

١ — إن الطفل تركيب عضوى حى نام يتطور على شكل تحولات وتغيرات متناهية فى الدقة من الخلية الأولى إلى التكوين العضوى المعقد الذى يؤهل الفرد للعمل وفق مستويات الراشدين . وفى ميدان هذا النمو والتطور يشرح العلماء خصائص الأعمال والتكوينات الجديدة ، وعناصر التغيرات التى تتناول الحجم والشكل والتركيب ، وصفات التغيرات التى تتناول مستوى الفعاليات وأوجه النشاط . كما أنهم يبحثون أيضاً فى المبادئ الأساسية التى تحلل أساليب هذا النمو المستمر وأحواله وهذه الفعاليات النشطة .

٢ — إن الطفل وحدة حية مستقلة بنفسها ، تعمل بمفردها عملا منظما إزاء المواقف التى تواجهها . وهذه الخصائص الجزئية التى يتميز بها السلوك تحتاج إلى تأكيدات خاصة . وتثبت العلوم الكيماوية والفيزيولجية بأن الوحدات المنظمة تستطيع أن تنقسم إلى أجزاء متشابهة ، وهذه الأجزاء تنقسم إلى أجزاء أصغر منها ، وهكذا باستمرار . وبمقتضى هذا فإن القوانين التى تحكم هذه الوحدات المنظمة ستستمر فى عملها بنوع من الدقة والتماثل ينتج أعمالا منسجمة متحدة . وبما أنه لا الطفل ولا سلوكه يتجزآن هذا التجزؤ نفسه ، فقد وجدت الصعوبات فى ميدان التحليل العلمى للطفل من هذه الناحية ، لأن كل الوسائل النفسية والأساليب القياسية التى استعملت لتحليل السلوك إلى وحدات نموذجية معينة قد اقتصرت على الأعمال التى يقوم بها التركيب العضوى بمجموعه . ولهذا السبب عندما نتكلم عن الذاكرة وعن التعلم وعن العاطفة ، فإنما نتكلم عن أعمال سلوكية مستقلة صنفت وفق قواعد التماثل والتشابه ، لأن هذه الظاهر ليست ظاهرة قائمة بذاتها ، ولكنها جمت مع بعضها لخصائصها الجوهرية المتماثلة ، فكل نشاط يمكن أن يصنف تحت عدد من المراتب المختلفة ، فإنما نفعل ذلك تسهيلا لمهمتنا العلمية . ولهذا فإن نفس السلوك الواحد يمكن أن يصنف كإحساس أو كرغبة أو كعاطفة أو كذاكرة ... الخ . وهذه الوحدة فى قوى النشاط الطفولى تستعمل إجراءات تبدو شاذة ولا تتصل اتصالا مباشراً بالعلوم البيولوجية

٣ — إن الطفل يعيش فى محيط لا يتميز هو نفسه لا بطابع الوحدة ، ولا بمظاهر البساطة ، ويعمل باستمرار مؤثراً على سلوك ونمو الطفل . وإن نماذج الدوافع الفعالة تأتيه من خارج محيطه ، وبعد ذلك — بصورة غير مباشرة — وبواسطة دفع ذاتى فيه ، يختار من بين مظاهر محيطه ما يناسبه ويوافقه . ويظل هذا التبادل المشترك بين الكائن البشرى وبين المحيط الاجتماعى الطبيعى مستمراً فى جميع الأوقات . وبما أنه قد يحصل نوع من التثبيت والتوقف فى النمو ، فإن صنفاً من السلوك يتشكل ويتحدد ، وإن النماذج النوعية السلوكية تتطور فى ميدان البواعث المتحركة وفى ميدان النظام الذاتى الخاص . وإن بعض هذه البواعث تصبح بواعث محركة منتجة بسبب تأثيرها على مجرى النمو بالتجارب العلمية وبالعلاقات الاجتماعية مع الآخرين ، بينما تبقى بواعث غيرها غير ذات تأثير ، لأنها لم تؤثر فى هذه العلاقات المتشابكة المتبادلة . وأما لماذا تصبح بعض البواعث مؤثرة ، وتبقى غيرها غير مؤثرة ، فإن هذه مسألة لم يبت فيها نهائياً فى الدراسات النفسية الطفولية.

٤ — إن الطفل يبقى خاضعاً لعملية نمو مستمرة متتابعة ، لا ترتد إلى الوراء ولا تقف . فلا يمكن للبيئة ولا للعلاقات الطبيعية والاجتماعية أن تظهر مرة ثانية بنفس الشكل الذى ظهرت فيه فى مرة سابقة ، وذلك بسبب تجدد النمو وتجدد العلاقات المشتركة المتبادلة . إن السلوك فى أية لحظة من اللحظات هو ثمرة تاريخ الطفل وتعبير عن باعث مؤثر معاصر .

وعلى ضوء هذه القاعدة ، فإن دراسة الأسباب المفردة والبسيطة يجب أن تستبدل ويستعاض عنها بدراسة البواعث المتعددة ، والعلاقات المتبادلة ، والتأثيرات النامية المتراكمة .

المشاكل النفسية للطفل :

ينقسم منهج العالم الذي يبحث في المشاكل النفسية للطفل إلى قسمين رئيسيين مختلفين من ناحية البحث والعمل . فهو يبحث أولا عن قواعد عامة ، أو مبادئ تنطبق على نماذج وأشكال كثيرة تعين على فهم السلوك وعلى السيطرة عليه والتكهن بعداه ونتائجه . وفي هذه العملية يتناول بحثه :

(ا) أعمال الكائن الحي الآلية ، أو ما تسمى النوازع الذاتية الأصلية للكائن الحي نفسه التي توجه أعماله توجيهاً مستقلا عن أي تأثير خاص بسببه شخص معين أو بيئة معينة .

(ب) التأثيرات التي يؤثر بها الكائن الحي على البيئة التي تحيط به ، أو ما تتركه الكائنات الحية من مظاهر خاصة على العالم الخارجي الذي حولها .

(ج) التأثيرات التي تؤثر بها البيئة على الكائن الحي ، ودراسة كيف يمكن تغيير السلوك وتكييفه بتغيير وتكييف البيئة التي ينمو بداخلها الكائن الحي .

وأما القسم الثاني ، فيتناول تفسير وشرح الظواهر ، وهما الأمران اللذان يمثلان تمثلا رئيسياً في عدد من العلوم . فالعالم النفسي يحاول أن يفسر عملية النمو نفسها بنماذج متقاربة ومفهومة ، إذ يشمل عمله أولا أن يضع القواعد العامة المشتركة بين جميع الأفراد . وفي هذا المجال توجد طائفتان من القواعد :

(ا) قواعد النمو التناسلي أو التكويني المتعارض أو المتقاطع .

(ب) قواعد النمو التناسلي أو التكويني الطولي .

ثم يقوم ثانياً بمهمة شرح وتفسير وفهم السلوك الفردي بحثاً عن الوحدة العامة بين أنواع السلوك . وفي هذا المجال يجب التمييز أساساً بين أمرين :

(ا) ترتيب الأفراد حسب مستواهم .

(ب) شرح حالة الفرد شرحاً يتناوله كوحدة جامعة .

أعمال الكائن الحي الميكانيكية :

في كل نظام من الأنظمة تنجز فيه الأعمال بمجموعها ومتحدة نتائج معينة في مساحة وزمن معينين يفترض العلم بأن هذا النظام يقوم على مبادئ منطقية ، وأن هذه المبادئ تعمل مستقلة استقلالا يتفاوت كثرة وقلة عن المجهودات الآلية للكائن الحي ، وعن تأثيرات البيئة التي تحيط بهذا الكائن ، وأن هذه المبادئ تعمل بصورة ميكانيكية مختلفة ومتعددة وفي بيئات مختلفة ، فإذا عرفنا هذه المبادئ فهمنا سلوك الأفراد واستطعنا السيطرة على هذا السلوك ، وإن كنا لم نعرفها فلا نحصل إلا على ما يسمى السلوك غير المفهوم .

هذه هي — بصورة عامة — المبادئ الأولى في علم النفس ، ومن استعراضها يظهر لنا بأن التجربة أصبحت الأساس الفني لتنظيم الدوافع والعوامل والسيطرة عليها . لذلك فإن فهمنا يزداد وإنتاجنا يغزر كما :

١ — رتبت الدراسات بشكل يسمح للدوافع والحوافز بأن تعمل بكل قواها لتجنب الانهماك بأجزاء صغيرة من العلاقات موضوعة البحث .

٢ — ونظمت الدراسات على أساس اتصال العوامل والحوافز واشتراكها .

٣ — وأعطى اهتمام أكثر سواء عند وضع تصميم التجربة وتنظيم المبادئ ، أو عند المباشرة في الدرس والبحث ، إلى المبادئ المتشابكة وتوافقها مع البيانات الإيضاحية . وذلك بدلا من إشاعة الاضطراب والفوضى في البحث باستعمال الأساليب التقليدية التي تخضع الكائن الحي لآراء متنوعة بدلا من إخضاعه للطرق البيانية المستمدة من الوقائع والتجارب .

وهناك مسألة أخرى — تجابهنا في حقل الدراسات النفسية لمشاكل الطفل — وهي اختلاف قابليات النمو ، واختلاف الأعمار وتأثيرها على الآراء والتجارب ، ثم درجة وطبيعة التغير بالنسبة لهذه الاختلافات في الأعمار والقابليات .

تأثير الكائن الحي على البيئة :

يجب أن ينظر إلى الطفل في أية لحظة من اللحظات كنموذج خاص ، أو كنظام تركيبي مشغول في مواجهة البيئة الخارجية ، وكلما تحرك إلى الأمام مع الزمن ، فإن ملاقاته بالعالم الخارجي تتحدد

فى جانب منها بانفعالياته الخاصة ، فإن الأطفال يختلفون اختلافاً كبيراً من ناحية الذكاء ، والقابلية الموسيقية ، والقدرة الإنتاجية ، والقابلية الإحساسية ، والأحوال البيئية . فإذا أمكن ترتيب الأساليب حسب ما يمكن قياسه من هذه الخصائص مفردة ومجتمعة ، فإنه يمكن فيما بعد تسجيل وتحديد وتعميم الإنجازات الفردية التى لوحظت بدرجات متقاربة .

ولكن هذه الملاحظات جميعها قد أجريت — وهذا مما يؤسف له فى قياس الذكاء — مع أنه ليس هناك مايمنع من توسيع هذه القياسات لتتناول مجالات أخرى غير دراسة الذكاء وقياسه ، إذ أن مواضيع علم النفس المقارن كتلك التى تتناول الفروق الجنسية والعنصرية من الممكن أن تؤدى إلى وضع تعميمات نافعة جداً إذا أمكن تصنيف الجماعات فى المراحل الأولى وتبع ذلك دراستهم دراسة مثمرة . ومثل هذه الدراسات الآن غير كاملة تماماً لاختلاطها بالتأثيرات الطبيعية الكثيرة المزدحمة .

ولهذا ، ففى هذه الناحية يستعمل الفرد كنشاط متطور مستقل نام ، أو ينظر إليه كبيئة نفسية يقوم هو نفسه ببنائها .

تأثير البيئة على الأثر الحى :

يقوم المجتمع عن طريق إرشاد وتدريب الأطفال بتكييف البيئات التى ينمو بداخلها الطفل ، فالعالم يهتم بتكييف البيئات تكييفاً تجريبياً مقصوداً لاستكشاف المبادئ الرئيسية والإجراءات العملية التى يمكن استعمالها فى تعليم وتدريب الأطفال .

وهنا تجابهنا مواضع كثيرة تتعلق بالأسلوب المنتج الذى يمكن الاستفادة منه فى التعليم والتدريب — كيف يحدد مستوى المناهج ؟ ما هى المواد التى يجب أن تدرس فى الجغرافيا مثلا ؟ وهل الصور المتحركة والصور الحركية تساعد فى تحسين نوعية التعليم؟ إن الدراسات التى تتناول تكييف البيئة تشتمل فى بعض الأحيان على دراسة العوامل والبواعث الموجهة كل على انفراد ، بينما تشتمل فى ظروف أخرى على دراسة نماذج معقدة جداً من قوى النشاط . ومن الواضح بأن التصميم التجريبى يتألف من تصنيف جماعات من الأطفال كل جماعة تتميز بعامل من العوامل موضوعة البحث ، ويؤخذ بهذه الطريقة ، لأن دراسة عوامل وبواعث بسيطة أسهل من تناول بحث يتألف من عناصر متشابكة ومتداخلة . وعلى كل يجب أن لا نفترض بأن جميع المشاكل فى هذا المجال تتمركز فقط حول مثل هذه العوامل والبواعث ، إذ الحقيقة أن العامل الفرد ذا التأثير الواحد يعتبر حالة محددة من طرف واحد ، وأن البيئة مع كل تأثيراتها تعتبر حالة محددة من طرف آخر . ولذلك فإن هدفنا النهائى يتناول جميع العلاقات البيئية فى جميع درجات الاشتباك والتعقد ، بأن كافة البحوث فى هذه الدراسات تنتهى بتعميم يعبر عنه باصطلاحات عددية ، وبفروض تنبؤية ، وبتحديدات معينة تطبق على الجماعات والأفراد .

إن مهمة علم النفس فى الماضى كانت تنحصر فى جمع إنجازات السلوك والرجوع إلى الوراء للبحث من العوامل السببية .

وهكذا يقارن تحت ظل هذا النوع من الدراسة بين الأطفال الحاذقين وغير الحاذقين ، وبين المحسودين وغير المحسودين ، وفى هذه الدراسات كذلك يعتبر « النموذج » النتيجة النهائية . وعلى كل فإنه إذا حصل تقدم فى معارفنا عن الطفل ، فإن البيئة يجب أن تصبح ظاهرة مستقلة متطورة ، ويصبح السلوك نشاطاً متحولا غير مستقل ، وذلك بشكل يمكننا أن نتعرف على السلوك من دراسة البيئة لا التعرف على البيئة من دراسة السلوك . ولكن هناك فى هذه الناحية صعوبات عديدة ، فقد قام العلامتان شيرمان وهنرى (١٩٣٣) باختيار خمس بيئات متفاوتة حسب قربها وبعدها من المدنية ، ثم قاسا بعد ذلك ذكاء الأطفال ، وفى النهاية فشلا فى الوصول إلى نتائج واضحة قاطعة من وجهة نظر التعميم الكلى . ويعود سبب هذا الفشل إلى حقيقة أن أية بيئة توجد لمدة طويلة من الزمن ستجرب إخضاع أفرادها إلى نوع من التأثير البيولوجى الانتقائى . ولكن إذا ماوتبت سلفاً البيئات التى تختلف اختلافاً جوهرياً فيما بينها ، ثم وزع الأطفال عليها توزيعاً متناسباً يمكن بواسطته السيطرة على العامل البيولوجى الانتقائى ، فإنه يمكن الحصول على نتائج عامة .

وقد أمكن الحصول على تعميات عديدة حول تأثير النظام والإدارة على الأطفال من دراسة الأطفال العاديين ومن شرح حالات البيوت التى يجيء منها الأطفال وشرح خصائص جيرانهم ومعارفهم . وعلى كل فإذا أمكن ملاحظة نماذج من البيوت

المتباينة من ناحية الأنظمة السائدة فيها والمتشابهة من النواحي الأخرى ، وأمكن كذلك قياس سلوك الأطفال ، فمن الممكن الحصول على نتائج هامة أكبر . إن السؤال العلمي الدقيق في بحوث علم النفس الحديث اليوم ليس هو من أي بيت جاء الطفل الذي تبدو عليه متناقضات السلوك ؟ بل هو : ما هي أنواع الحالات البيئية التي تعرض الأطفال لمتناقضات السلوك ؟ لأن الانتقال في العصر العلمي الجديد من السلوك إلى البيئة أقل إنتاجاً من الانتقال من البيئة إلى السلوك .

(بغداد) فؤاد طرزي

الربيـــع

للأستاذ محمد هارون الحلو

غدا الربيع فنجوى الحب ألحان ... دن يراق وقينات وولدان
أرى بنات الربى يرقصن في طرب ... مع النسيم وفردوس الهوى حان
خماره بات يسقيها على ظمأ ... وهن من حوله شرب وندمان
حلم يجاذب قلبي وهو مفتتن ... وكل قلب به حالم وهيمان
لقد غشاه بسر الغيب مبدعه ... تبارك الله ما سواه إنسان
يد تخط كما شاءت مصورة ... وكل ما غمته فهو بستان
ما للأماليد في أعطافها زهر ... يبهل من نشره روح وريحان
كأنهن عذارى قد خطرن وفي ... معاصم السحر ياقوت ومرجان
يمسن في خفر عبر الظلال كما ... يميس من طرب بالراح نشوان
بكرت أصطبح النجوى على شغف
بين الورود وكم فيهن فتان
يا للحداق بها كم أيقظت شجناً ... فنوّح طير الهوى يدنيه لهفان
أنا المصاب وهذا السهم في كبدي ... رماه ظبي إلى جنبي غيران
يوم استبقت إلى النجوى تغازلني ... بلحظه وبريق اللحظ وسنان
قلت منه بأذيال معطرة ... ومال مني - وقلبي منه ظمآن
قطفت منه نديا غير مقتصر ... كما تألق تفاح ورمان
آذارهم لا دفقت الحب في وتري ... فدفق شدو به في القلب حيران
نشدتك الله عرس الروض بلبلي ... وهاج مني خيالي فهو يقظان
الأمنيات أباريق معتقة ... تديرهن على الأرواح غزلان
ولؤلؤ الندى المنضور مؤتلق ... على الخمائل قد وشته عقيان
والدر والتبر في الياقوت نضده ... بطابع الحسن في الفردوس فنان
له بكف الورى آلاء ذي منن ... يمنهن به فضل وإحسان
والشمس تضفي غلالات مزركشة
يرف منها على الوشي تيجان
كأنها ملك يسمو به أفق ... وللربيع بها عرش وسلطان
ما كان أسمى بنات الليل شاردة ... وألقها شارد الوجدان سهران
ترنو إليها فتغضي في موادعة ... وقد أضر به صد وهجران
فهل ترى أملا يهفو على أمل ... وهن منه حواري وأخدان
أنا الذي هاجت النجوى بلابله ... وللقماري في الأغصان ألحان
لكم تسمعت منها لحن ذي وتر ... يضم عطفيه آلام وأشجان
أما لقلبي ينبوع أذوق به ... من الأفاويق ما يهواه ندمان
بين الربيع ودنيا الحب آصرة ... هما على الدهر إن شبهت صنوان
هما حياة بشاها بأرغنة ... وكم تغنى بها في الخلد رضوان
لا تسألني أذات الطوق حالية ... كأس حيث رياض الحب أفنان
وما حلاها أسوحان الربى عبقا ... وزنبق القاع في الأعطاف فيان
أم الحوادث بين الشرق قد عصفت
بمهرجان الهوى فالتاع غصان
ربيع هذا الورى في كل بارقة ... للخير ، ما لربيع العيش أوطان
ربيع قلبي شبابي طالما انبجست ... منه عيون إلى النجوى وخلجان
ربيع روحي يقين أستضيء به ... يشف عنه بنور الله إيمان
ربيعنا السلم إن قرت دعائمه ... فما يزعزعه بغي وطغيان
الله للعرب قد ناداهم سبب ... إلى الجهاد فهم في البأس فرسان
إن مال بالقدس إعصار فروعه ... فسوف يحمي ربيع الحق رحمان

محمد هارون الحلو

إلى الشاطئ

للأستاذ ابراهيم الوائلي

أيها الملاح – والزورق ينساب ويجنح
ونسيم الفجر يختال على الماء ويمرح –
يمم الشاطئ حيث الحلم النشوان يسنح
فهنا كنت مع الطير أناجيها فتصدح

أيها الملاح – والشاطئ مسحور الهضاب
وعروش الكرم ترمى فوق هامات الروابي
وشعاع الفجر ينساب على الطل المذاب
أمد الذكرى وجدد لى أحلام الشباب

مل إلى الضفة فالزنبق يختال ويعبق
وبذاب الطل فى الزهر دموع تترقرق
فلكم ينفر جدول وكم يسبح زورق
والدجى لفت جناحيها وهذا الصبح أشرق

هذه الفتنة فى الشاطئ – والطير تغنى –
إنها مبعث إلهامى وإحساسى وفنى
أيها الملاح جدد لى عهداً ضاع منى
فلكم وقعت كالطير هنا بالأمس لحنى

إن فى الشاطئ من حبى عهداً لا يزال
هائماً مثلى فى الآفاق مشبوب الخيال
فى دموع الطل، فى النرجس، فى خفق الظلال
فى خرير الماء، فى الأنسام، فى صمت الرمال

ها هنا حبى واقداحى وساعات اللقاء
وربيع ذاب فيه الصيف وانحل الشتاء
وانطلاق قد تساوى الصبح فيه والمساء
وهنا ودعت أمسى مثلما شئت وشاء

أيها الملاح فى نفسى للماضى رغاب
لم تزل تضحك للفجر وتحيا فى الشباب
فهنا كان رفاق، وهنا مر شباب
وهنا كان صباح وأمامى عذاب

أيها الملاح فى جفنى طيف لا يغيب
لترانيم وكأس ولقاء وحبيب
فهنا دنياى بالأمس ومامى الرتيب
وهنا مجلى خيالاتى ومغناى الخصيب

أترى مثلى تشجيك ترانيم الطيور ؟
والسواقى تتهادى فى رمال وصخور ؟
والندى الذائب خمر سكرت منها الزهور
فهنا شعت كئوس وهنا رفت ثغور

إيه يا ملاح : إن طال فى الشط اغترابى
فلكم أطوى حياتى بين موج وضباب ؟
أنا فى الزورق ظمآن فهل تدرك ما بى ؟
وعلى الشاطئ سمارى وأقداح شرابى

مل إلى الضفة كى تنسى تهاويل الطريق
فهنا العيش رغيداً، وهنا الظل الرقيق
علنى أدفن همى بين أكواب الرحيق
وأرى الحاضر يزهى مثل ماضى الطليق

أيها الملاح – والزورق ينساب ويجنح
ونسيم الفجر يختال على الماء ويمرح –
يمم الشاطئ حيث الحلم النشوان يسنح
فهنا كنت مع الطير أناجيها فتصدح

(القاهرة)

ابراهيم الوائلي

اعصفى يا رياح . . !

للأســـتاذ رضوان ابراهيم

اعصفي أيتها الرياح وزمجري .

من كان له في هذا البلد كوخ يخشى عليه التحطيم فليستعطفك !

اعصفي أيتها الرياح ... من كان له في هذا الحقل سنابل يخاف أن تتقصف فليسترحك !

اعصفي أيتها الرياح .. من كان له في هـذا الوجود أحبة يشفق عليهم من لفحاتك فليطلب إليك أن ترفق !

اعصفي ... اعصفي يا رياح !؟

مهما عصفت فلن تزلزلي هذا الأساس ؛ لأنه لاصق بالأرض !؟

ومهما غضبت فلن تهزي في هذا البناء؛ لأنه وهم من الأوهام !؟

ومهما زمجرت فلن تدكي هذه الصروح؛ لأنها أشباح الأبدية !؟

اعصفي أيتها الرياح ... اعصفي !.

إنني سـار غريب ... مهما عصفت فلن ينشق عني هـذا الأهاب الذي يشـد عظامي ... إنه هدية أبي يوم جاءت بي إلى هذا الوجـــود !؟

ومهما ثارت ثائرتك فلن تطيحي بهـذه القبة الزرقاء التي أستظل بها كلما أهبت وأسى زفرات الهجير ... هجير المجتمع . كل موطيء لقدمي وطن حتى أنقل القـدم إلى غيره ... وكل مضجع آوي إليه تحت سماء الله بيت حتى أنفض غبار الجهد . وكل كسرة أتبلغ بها مائدة ما دامت تحفظ على الحياة !؟

اعصفي أيتها الرياح ... اعصفي .

اعصفي وزلزلي ... فقد تزلزلين يوماً صروح الظلام !

اعصفي ودكدكي ، فقد تدكين مرة معاقل الظلم والطغيان !

اعصفي وثوري . فقد تحطمين سدود الرحمة فتتدفق فتغمر الوجود !

اعصفي ... فقد يصحبك برق يمزق الغشاوة التي ترين على الأبصار والقلوب ، فيرتد إليها البصر والبصيرة ، فترى حكمة السماء على الأرض ، ونور الله على ظلام الناس .

اعصفي وأبرقي ، فقد يعقبك غيث يهطل على القلوب فيحييها فتخضر في جوانبها الرحمة ، ويمرع فيها الإيمان ، وتزدهر في حواشيها الإنسانية !

اعصفي واملأي الدنيا ظلاماً ورعباً ، فقد تنجلين عن شمس ساطعة تغمر الكون بضيائها ، تطارد أشباح اليأس ، وتتعقب فلول الظلام ، وتنشر الأمل والنور والطمأنينة والسلام .

رضوان ابراهيم

مدرس بالزعفران — الباجية

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

« بنات » للأستاذ أحمد الصاوي محمد :

كتاب يطرق أبواب الشعور في النفس الإنسانية طرقاً عنيفاً في كل فصل من فصوله قصة ، وفي كل قصة قلب ، وفي كل قلب عاطفة . ويقف المؤلف من وراء هذا كله ليلهب القلب الذي يخفق ، وليؤجج العاطفة التي تحرق ، وليقدم من صور الحياة نماذج فيها من زهر الشرق ، وفيها من عطر الغرب ، وفيها القلم الذي يصب الزهر والعطر في قارورة الوجدان !

في هذا الكتاب فتاة ظلمها الصاوي كل الظلم حين لخص قصتها الرائعة في ثلاثين صفحة ؛ فتاة ليست ككل الفتيات ، لأن مبدع شخصيتها كاتب ليس ككل الكتاب !

هذا الكاتب الفرنسي أخفض قلمي تحية لفنه ، ولا تصفني بالغلو إذا أحنيت رأسي إجلالا لعبقريته !

وتسألني لماذا ظلمها الصاوي؟ فأقول لك : لأن هذه المسرحية تهز منك الأعماق وهي ملخصة في ثلاثين صفحة ، فما بالك لو أفرد لها الصاوي كتاباً نقل فيه كل همسة نفسية من همسات الكاتب الفرنسي وكل وثبة فنية من وثبات قلمه ؟ !

مسرحية تعد في رأي النقد نموذجاً فنياً بلغ من النضج في كل عنصر من عناصره ما يدفع به إلى القمة من الأدب المسرحي الحديث ... الفكرة من تلك الأفكار التي لا يلتقطها من أعماق النفس إلا ملتقط خبير بمسارب الشعور الإنساني حين يرتطم بواقع الحياة ، والحوار موهبة فذة ترقب الشخوص من مرصد الوعي المرهف لتسجل الحركة النفسية قبل الحركة الفكرية ، والصراع من هذا اللون الذي تستحيل معه الكلمات إلى متحف من متاحف العرض الفني لصور الأهواء والنزعات ، أما طريقة التوزيع المسرحي للأدوار الرئيسية فتذكرك بطريقة الكاتب النرويجي إبسن في مسرحيته الخالدة « The wild duck » أو البطة المتوحشة ؛ كل دور يلائم شخصيته القائمة به ملاءمة تجمع بين منطق الحياة ومنطق الفن . ويبقى بعد ذلك للكاتب الفرنسي تفرده بحرارة الصراع وعنف الوجيب في القلب الإنساني !

دعني أقدم إليك هذه المسرحية الرائعة التي لخصها الصاوي تلخيصاً أميناً تحت عنوان « بنت بين أبوين » ... هي فتاة كما قلت لك ليست ككل الفتيات ؛ فتاة رقيقة الحس ، مكتملة العقل ، مشبوبة العاطفة . نشأت في بيت من تلك البيوت التي تظلل سماءها الصافية غيوم من الحيرة والشك والضلال ؛ فأبوها رجل مغلق القلب ، مغمض العينين ، متبلد الشعور والوجدان . زوجته في رأيه ليست زوجته ، وابنته في وهمه ليست ابنته ... وتمضي عجلة الزمن لتطوي من حياة الأسرة المعذبة الحائرة عشرين عاماً ؛ عشرين عاماً لقيت فيها الزوجة ما لقيت من شكوك الزوج وإهماله ، ولقيت فيها الفتاة ما لقيت من خشونة الأب وإعراضه ! وتشب الفتاة عن الطوق وبين جنبيها قلب يتقلب على جمرات من الحقد على هذا الأب الذي لم يشعرها يوماً بحنان الأبوة ، وعلى تلك الأم التي حرمتها هذا الحنان في فجر العمر وشبابه ، حين جاءت بها إلى الحياة من رجل غير الرجل ... وللأسرة صديق يتهمه الزوج بانتهاك حرمة العطر في زهرة كان يمكن أن تملأ بيته بالأريج ، وتقف الزوجة والصديق أمام هذا الاتهام السافر موقف المظلوم من القاضي الجائر ؛ فهو إن قدم الدليل على براءته لا يجد الأذن التي تسمع ولا القلب الذي يشفع! والفتاة البائسة تجلس في الصف الأول من صفوف النظارة لتشهد المأساة بكل خلجة من خلجات الفكر الموزع والعقل المشتت والضمير الملتاع . وينتهي الفصل الأخير بأن تغادر الفتاة المسرح الذي ملأ عينيها بالدمع وأرمض جوانحها بالعذاب ، ولكن إلى أين ؟ ... إلى هناك ، إلى البيت الآخر الذي يضم بين جدرانه رجلا كانت تناديه أبداً يا « أبي » تناديه بها بالقلب والروح واللسان ! أكان أبوها حقاً ذلك الرجل الذي لجأت إليه ؟ الله يشهد أنه لم يكن للعائلة غير صديق؛ صديق يحب الزوج ويجل الزوجة ويعطف على الفتاة ، ولكن الشك قد أظهره في عيني الزوج المضلل بمظهر العاشق وفي عيني الفتاة الشقية بمظهر الأب ، وما أثقلها من كلمة كانت تلهب شعوره بسياط الأسى الدفين حين تناديه الفتاة بنداء الأبوة وهو عنه بعيد بعيد !

ويأتي يوم يتدخل فيه القدر ليرفع الغطاء عن وجه الحقيقة ، والغشاوة من عيني الزوج ، وكما يستيقظ النائم من نومه الطويل وأحلامه المفزعة ، فقد استيقظ الزوج بعد عشرين عاماً ليطلب الصفح من الزوجة والابنة والصديق ... ويصفح الصديق من

زلته ، وتعفو الزوجة عن سقطته ، وتبقى الفتاة يحول البغض والحقد بينها وبين الصفح والمغفرة ! وهنا يبدأ الصراع النفسي العنيف الذي يرتفع بالفن المسرحي إلى الأوج ... أب يتوسل إلى ابنته أن تصفح ، وأن تعفو ، وأن تعود إليه ، أب فرغ قلبه وفرغت حياته من الحب البنوي عشرين عاماً ويريد اليوم أن يملأ فراغ القلب والحياة ، أب يئن أمام عاطفة ابنته المتحجرة أنين حيوان شيمته السهام فراح يأسى جراحه ، أب يحاول أن يقنعها بأنه أبوها وأنها ابنته ، وكأنما شق طريقاً إلى القلب المغلق وقف الماضي البغيض ليعترض طريق أحلامه وأمانيه ! ... إذا قال لها إن عينيه تشبهان عينيها قالت له : أجل يا أبي ، بما ليس فيهما من حنان ! وإذا قال لها يجب أن تؤمني بطهارة الأم التي أنجبتك ، قالت له : إن من يعيش معك يا أبي لا يؤمن بأحد ! وإذا قال لها أحبي يا ابنتي ما كرهته واجتويته ونفرت منه عشرين عاماً ، أما بشكلي ورأسي ويدي وظهري قالت له : ولكن ابتساماتك يا أبي ، ونبرة صوتك ، ووقع خطاك ! وإذا قال لها ألا تحاول يا ابنتي أن يقترب أحدنا من الآخر قالت له : إن من واجبنا يا أبي أن نحاول ! ويهتف الأب وهو ينعى بلوعته : أرأيت يا ابنتي أن الكلمة الوحيدة التي وجدتها هي كلمة (الواجب) وهي كلمة ينقصها السحر ؟ ! وتجيبه الفتاة وهي تشرق بالدمع : آه لو أمكننا ! ويهمس الأب من أعماقه : أن نتسامح ، وأن نتصافح ! وأمام اللهفة الضارعة تقول له: تذكر لحظة حنان في حياتنا الماضية ، تذكر شيئاً ، شيئاً نستطيع أن ننسج عليه مودتنا ، ثم محبتنا ، ثم سعادتنا تذكر عندما كنت طفلة ومرضت ، ألا تذكر ؟ فلنبحث عن شيء آخر يا أبي ، شيء أكون قد قلته لك ... كلمة ... أو إشارة تجمعنا اليوم وتقرب أحدنا إلى الآخر ! ويصرخ الأب في يأس مرير : آه يا ابنتي ، لا أكاد أجد شيئاً ، لقد كنت بلا ريب طفلة لطيفة ، ثم بنتاً جميلة ، ولكنني لم أنظر إليك ، لقد كرهتك منذ مولدك ، أما الآن فلشد ما أحب أن أحبك يا ابنتي !! ... أنظري أليس مثلنا كمثل كفيفين عمي منهما البصر وهما يتخبطان في الظلام مادين أيديهما ليلتقيا ؟ ! هيا يا ابنتي إلى البيت ، ولن نكون الأسرة الوحيدة على ظهر الأرض التي يعيش فيها أب وابنته جنباً إلى جنب بغير حب !

ترى هل ذهبت معه ؟ كلا ! إن الريشة المبدعة تريد أن تختم المسرحية الفذة ختاماً نفسياً لا نظير له ... إن الكاتب الفرنسي يريد أن يلقي على رجال الفن درساً ترسم لهم الطريق ، وها هوذا ينطق الفتاة بأعمق وأروع ما يمكن أن تنطقها به الحياة :

« لن أذهب معك يا أبي لأنني أريد أن أحبك ... يجب أن نتحاب يا أبي وقد أحبك إذا سافرت إلى أي مكان بعيد ! إنني لا أستطيع أن أنطق أمامك بشعور الميل والانعطاف لأنك أمامي وحتى لو قلت لي أرني ما عندك فإني لم أتأثر به إذ أنك تقوله بذلك الصوت الذي طالما تألمت منه أطرافي وجرح فؤادي ... لا حيلة لي منه فهو ما زال يشجيني ويجرحني ! حتى لو بكيت يا أبي فإن دموعك تسيل على وجهك ؛ وجهك الذي ظل عشرين عاماً وهو يتجهم لي !! ... وعلى ذلك فلا بد لبناء شيء بيننا من أن نهدم أولاً كل شيء ، ولكي أحبك لا بد لي من أن أنساك ... ولكي نزداد قرباً منى ينبغي أن نزداد بعداً ... سافر إذن لأفكر فيك . وأكتب إليك ... ولكي تكون أبي الذي بعد عني والذي سيعود إلي ... أبي المجهول الذي لا يعرفني ، والذي سيجيء يوماً ما ... سوف ترى ، فإنه ما إن يتم البعد بيننا قليلاً حتى يشب الحب بيننا قليلاً ... وفي رسالة من رسائلنا ، نزداد جرأة على إبدائه ، والتعبير عنه ... ثم نتحاب حقاً يوماً ، وعندئذ تعود ... أريد ذلك يا أبي »؟ ويجيبها الأب وهو يجر قدميه مندفعاً إلى الخارج وفي صوته رائحة الدموع : نعم يا بنيتي ... وسأنتظر رسالتك الأولى !!

فتاة كما قلت لك ليست ككل الفتيات ، لأن القلم الذي قدمها إلى الناس قلم كاتب ليس ككل الكتاب ... واقرأ بعد ذلك للصاوي قصصاً أخرى بعضها له وبعضها لكتاب آخرين من الأدب الفرنسي ، ومهما بدا لك من الاعتراض هنا وهناك فلن تستطيع أن تنكر على الصاوي أنه إنسان ؛ إنسان يستثير قلبه في قصصه حين يكتب ، ويرجع إليه دائماً في قصص غيره حين يعرّب ! اقرأ مثلاً في الفصل الأول قصة الفتاة التي تضحي بحبها الذاتي في سبيل الكرامة ، وفي الفصل الثاني قصة الفتاة التي تضحي بحبها الأبوي في سبيل الزوج ، وفي الفصل الرابع قصة الفتاة التي تضحي بحبها الخيالي في سبيل الأمومة ، وفي الفصل الأخير قصة الفتاة التي تضحي بحبها المثالي في سبيل الوطن ! واقرأ إذ شئت في الفصول الأخرى ألواناً من المرأة وألواناً من الحب ، وإذا كانت هذه الألوان لا تبلغ المستوى الرفيع في قصة الكاتب الفرنسي والقصص الأربع التي أشرت إليها في الفصل الأول والثاني والرابع والأخير ، فحسبك أن خفقات القلب فيها تسبق وثبات القلم !

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

قلت وما زلت أقول لماذا يؤثر بعض القراء أن يظلوا مجهولين وهم أصدقاء ؟ ... هذه رسالة من « القضارف — سودان » تحمل إلىّ من أديب لم يذكر اسمه تحية ملؤها التقدير الكريم لهذا القلم المتواضع الذى يسطر تعقيباته من أسبوع إلى أسبوع . إن هذه التحية الكريمة وأمثالها من التحايا الصادرة من أعماق الشعور والقلب والعاطفة ، لتؤكد لى أن رسالة الأدب بخير ما دام هناك خلق وعقل وذوق ووفاء ، أما أنا فلا أملك لهؤلاء القراء الأصدقاء جميعاً غير الشكر ، وإنه لشكر العاجز المقصر عن بلوغ ما يريد !.

وهذه رسالة أخرى من « الإسكندرية » تحمل إلىّ أيضاً ما حملته الرسالة السابقة من عاطر الثناء ، ولكن مرسلها الأديب الفاضل سعيد كامل غير راض عن الكلمة التى كتبتها منذ أسبوعين عن الريف ، لأن قضية الريف كانت تنتظر منى تصويراً أصدق وأوفى وأكثر إحاطة مما كتبت ! إن ردى على الأديب الفاضل بعد خالص شكرى له هو أنى ما أردت من وراء كلمتى عن الريف إلا أن أسجل حالة شعورية صادقة تركت أثرها فى نفسى وحسى ، وأعتقد أنى قد نقلت حديث الشعور إلى الورق نقلا يمكن أن يحرك ذوى النفوس الشاعرة من أصحاب الأقلام وأصحاب السلطان

أما الرسالة الثالثة فمن تاجر فاضل « بمحلة مرحوم » يهوى الأدب ويحب « الرسالة » وهو السيد حنفى الشريف ... يسألنى التاجر الأديب حلاً لمشكلة سببها له صديق الأستاذ راجى الراعى فى قطرات نداه حين قال : « أتعس الناس رجل ذو ذاكرة قوية يصرف الساعات الطوال من نهاره وليله فى المطالعة ولا يرى فيه قوة للتعبير عما يشعر به ، فتظل تلك الخلائق فى أرحامه لا تقوى على الخروج وتتراكم مع الزمن حتى يصاب بالاستسقاء الذهنى وفى مساء يوم من أيامه السود ينفجر رازحاً تحت أثقاله ويسلم الروح منتحراً أو مجنوناً ! إن النفس إذا غصت ساحتها بما فيها ولم تجد لها منفذاً أصيبت بالاختناق ، فلا تصرفوا أوقاتكم فى القراءة إذا كنتم لا تستطيعون أن تكتبوا . القلم ترجمة الروح فاكتبوا كلما قرأتم لترتفع أشجاركم بدورها بين تلك الأشجار التى تتفيأونها فى غابات الفكر والإحساس . اقتحموا كوى أرواحكم بين الحين والحين لئلا يفسد هواؤها » ! ... إن مشكلة التاجر الأديب هى أنه مشغوف بالقراءة والاطلاع والاغتراف من منابع الأدب ، ولكنه لا يملك القدرة على التعبير عما يجيش بنفسه من شتى الخواطر والأحاسيس بما يرضى أديباً كبيراً كالأستاذ الراعى ، فهل يترك القراءة والاطلاع لأنه لا يستطيع أن يعبر ؟! هذا السؤال يوجهه إلىّ صاحب الرسالة ، وأنا أترك الجواب للأستاذ راجى الراعى لأن الموضوع موضوعه وهو أحق منى بالجواب !

وتبقى بعد ذلك الرسالة الرابعة وهى من « السودان » أيضاً إنها رسالة عزيزة علىّ لأن ما فيها من عتاب وطنى حار قد لفح منى الشعور والوجدان ! أود أن أقول لمرسلها الأديب الفاضل ج . البشير إنى سأفرد الموضوع الذى أثرته بكلماتك الملتهبة بصدق الوطنية والإيمان مكاناً خاصاً من « تعقيبات » العدد القادم ...

قصة « مالك الحزين » فى مجلة الثقافة :

قصة مالك الحزين قصة معروفة لكل من قرأ كتاب « كليلة ودمنة » ، وهى قصة قصها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك حين طلب إليه أن يضرب له مثلا للرجل يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه — هذا المثل الذى ضربه الفيلسوف لهذا الصنف من الناس مستمداً معناه من شخصية مالك الحزين ، هذا المثل تستطيع أن تعثر عليه فى العدد الصادر منذ أسبوعين من الثقافة فى صورة دكتور من الدكاترة الشبان ، يلذ له دائماً أن يحمل عصا الأستاذية فى النقد الأدبى ! قال الدكتور وهو يعرض لأحد الكتب بالنقد والتوجيه :

« دعوت فى مقال سابق إلى أن لا يكتب المؤلف كتاباً إلا وقد أصبحت أفكاره تجارب يعيشها ويحياها ، حتى يكون الكتاب ذا قيمة حقيقية وحتى يمكن أن يتمتع به الناس ؛ فإن الكتاب إن لم يصدر عن منطق المؤلف وروحه ، ولم يصبح جزءاً لا يتجزأ من ذهنه ونفسه ، يكون شيئاً تافهاً ، ولا يكون خليقاً بالنظر والدرس . وقد يظن بعض المؤلفين فى هذا عنتاً وقسوة فى الحكم على الكتب ، ولكنهم إذا نظروا فى الساعات التى اقتطعوها من القارىء فى غير جدوى ، إلا أن يأتوا بأخبار من هنا وهناك ، حتى ليغدو الكتاب كأنه سوق غير منظمة يختلط فيها الزائف بغير الزائف والمهوش بغير المهوش ، إذا نظروا فى ذلك اعترفوا بصحة ما نذهب إليه » .

كلمات الدكتور الناقد حق فى حق ، ولكن هل يتفضل بتطبيقها على كتبه قبل أن يطبقها على كتب الناس ؟ أم أنه يريد أن يعيد لنا قصة مالك الحزين ، ذلك الذى قال عنه بيدبا الفيلسوف أنه يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه ؟! ...

أنور المعداوى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

يعني رجل طيب :

تصدى كاتب في مجلة المقتطف لما كنت كتبته في العدد (٨٣٠) من الرسالة بعنوان « مجمع سلامة موسى للغة العامية » فكتب تحت عنوان « النقد والتعقيب في الصحف والمجلات » متوهما أنني نقدت في ذلك الموضوع كتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » للأستاذ سلامة موسى ، نقداً « انعدم فيه التجاوب وضاعت الأمانة الواجبة على الناقد ... الخ » وأنا أبادر أولا فأقول إني لم أتعرض لنقد الكتاب ، وإنما كان مبنى الموضوع على طلب الأستاذ سلامة موسى عضوية مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، إذ قلت إن الأستاذ دائب الطعن على اللغة العربية وأدبها وثقافتها . والغرض الأول من المجمع هو المحافظة على هذه اللغة وتنمية أدبها وثقافتها ، والأستاذ سلامة يدعو إلى اتخاذ اللغة العامية بدلا من العربية الفصيحة ، وعلى ذلك فهو ليس أهلا إلا لعضوية مجمع ينشأ للغة العامية ، ومن التخليد له أن يسمى المجمع العامي باسمه . واستشهدت على ما قلت ببعض نصوص وردت في كتابه المذكور آنفا نعى فيها على العربية وثقافتها ودعا إلى اللغة العامية .

فهل يعد الاستشهاد ببعض ما جاء في كتاب ، نقداً له ؟ ولو أنني نقدته حقا لما ضيعت الأمانة ، ولما انعدم « التجاوب » في نقدي ولو أنه في غير صالح الكتاب . ويظهر أن الكاتب رجل طيب مجد مجتهد كما يظهر من قوله « وغايتنا من وراء هذا إعلاء مكانة النقد وتنقيته من الشوائب » أنه أيضا غيور على صالح النقد الأدبي ، ولكن كل هذه أشياء غير الأصالة والإصابة ، وفقدان هذين هو الذي جر على ما ند به قلم الكاتب ، سامحه الله .

وقد صدق الرجل الطيب الغيور في مؤدى قوله : « لقد زعم الكاتب الشاب (الذي هو أنا) أن الأستاذ سلامة موسى يهجم على اللغة العربية ويعيب أدبها ويدعو إلى اللغة العامية وأن آراءه في هذا الكتاب ككل الآراء التي في كتبه وأن رجلا هكذا اتجاهه لا يجوز أن يحتل مقعداً مع الخالدين في المجمع اللغوي بل إنه ليرشحه لرياسة مجمع يطلق عليه المجمع العامي ويسمى باسمه » نعم قلت ذلك ودللت عليه بما جاء في الكتاب ، وأزيد عليه الآن ما قاله المؤلف بعد أن ادعى أن السلفية — ويقصد بها الكتابة عن الأسلاف دون هنري فورد وكارل ماركس — منعت الأمة من التقدم الصناعي ، قال في (ص ١٧) : « لأن المجتمع الصناعي كان جديراً بأن يحدث مجتمعاً مستقبليا يكثر مؤلفوه بلغة الشعب وتنتقل اهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب إلى التأليف عن مشكلاتنا العصرية في الأخلاق والتعليم والاقتصاد ومكافحة الفاقة . وإني بالطبع لا أغفل هنا ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوي » وفي الكتاب كثير من أمثال هذا الكلام .

على أن عنوان الكتاب نفسه يدل على أن المؤلف يدعو إلى اللغة العامية ، فهي المعنية بـ « البلاغة العصرية » لأن الواو الواقعة بينها وبين « اللغة العربية » في اسم الكتاب ، تقتضي التغاير بينهما ، أي أن البلاغة العصرية شيء مغاير للغة العربية !

والرجل الطيب المجد الغيور ينفي عن الأستاذ سلامة موسى أنه يعيب العربية ويدعو إلى العامية ، وقد دفعته طيبته إلى الإغضاء عما استشهدت به من الكتاب ، وأعمل جده واجتهاده في عرض أبواب الكتاب ومحتوياته التي منها بحوث في « أثر الألفاظ من الناحية السيكولوجية والاجتماعية والخلقية » ولم يدرك الرجل الطيب — لطيبته — أن المؤلف يقصد بذلك ثلب اللغة العربية ، فهو يقول مثلا في أثر الألفاظ النفسي ص ١٤٦ : « في لغتنا كلمات تحمل شحنات عاطفية سيئة تؤدي إلى ارتكاب الجرائم (العم والعرض في الصعيد) » .

ومن محتويات الكتاب التي أشاد بها الرجل الطيب ما جاء في قوله « ولم يقف مؤلف كتاب البلاغة العصرية عند هذه الفكرات بل ارتأى أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة (ولا تنس أنها العامية) وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشيء بدلا من مخاطبة العواطف ، وذلك لأن البلاغة العربية تخاطب

العواطف دون العقل ، وهذا ضرر عظيم » ومعنى هذا أن نلغي الأدب كله لأنه يخاطب العواطف ونعمل بلاغة عصرية عامية تحرر بها العلوم ويكتب بها عن كارل ماركس وهنري فورد من أجل خاطر سلامة موسى الذي ألف هذا الكتاب متأثراً بـ « عاطفة » الكراهية للغة العربية !

إن النتيجة التي يستخلصها القارئ الفطن من هذا الكتاب — بعد أن « يتجاوب » معه — هي أن اللغة العربية علة تأخرنا في كل شيء ... ففيها كلمات تفسد الأخلاق كالقم والعرض في الصعيد ، وهناك ألفاظ مثل الحريم تهدر كرامة المرأة ، وهناك كلمات أرستقراطية تبسط السيادة الطبقية كصاحب السعادة وصاحب العزة ، وخلوها من ألفاظ الصناعة أدى إلى تأخرنا الصناعي ، كل ذلك إلى ما فيها من مترادفات وما تحتويه من كلمات بدوية منحوتة من أصول حسية لا تنفع الحضارة المصرية .

لذلك الهذيان كله ، الذي يوجع القلب ويذهب الوقت سدى بقراءته ، وجب أن تتخذ البلاغة المصرية بدلا من تلك اللغة العربية ... والتعبير بالبلاغة المصرية ما هو إلا ترويج وطلاء للفظ « اللغة العامية » إذ ترى الدعوة في الكتاب سافرة إلى الكتابة بلغة الشعب والمجتمع وما إلى ذلك ، ليكون « المعلم دبشة » الجزار أمير البلاغة المصرية ...

وكاتبنا ذاك رجل طيب جداً ، لأنه يدفع تهمة الدعوة إلى العامية عن الأستاذ سلامة موسى ، مع أن هذا يجاهر بها ولا يرى فيها عيباً ويسره أن ينشأ باسمه مجمع اللغة العامية أو بعبارة أخرى ، مجمع للبلاغة المصرية .

وقد خيل إلى الكاتب المجهد بعد أن تعب من عرض أبواب الكتاب « أن ما جاء في أقوال كاتب مجلة الرسالة من أن الكتاب يدعو إلى التهجم على اللغة العربية ويعيب أدبها ويدعو إلى العامية لا يقوم على أي أساس من الصدق والحق ، ونخشى أن نقول إنه تشويه متعمد قصد به التشهير وإذاعة الآراء الباطلة ، وهذا ما نشجبه كل الشجب » .

يا أخي ، لا تغضب ولا تشج فأنا لم أشوه ولم أقصد التشهير ، لأني لم أرم الأستاذ سلامة بما يكره ، وإذا لم تكن مصدق فسله أو سل أي أحد ممن لا تأخذهم غفلة الناس الطيبين .

كشكول الأسبوع

◻ أمر معالي وزير المعارف بتحويل دار ابن لقمان بالمنصورة إلى متحف يحوي آثار العصر الأيوبي ، وهي الدار التي أسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا في الحروب الصليبية التي أغار فيها على مصر .

◻ جاء في مجلة المصور أن والد شاعر خليل مطران كان يكره أن يكون ولده شاعراً حتى إنه كتب إليه في صباه يقول : « يا ولدي برضانا عليكم لا تمارسوا هذه الصنعة لأننا ما وجدنا شاعراً على جلده فرو » .

◻ قال الأستاذ أحمد الشايب في إحدى محاضراته بكلية الآداب : نستطيع أن نقسم الشعر العربي تقسيما جديداً على حسب تدرجه في العصور المتعاقبة من خشونة البداوة إلى لين الحضارة ، فالشعر الجاهلي « صوف » والأموي « قطن » والعباسي « حرير » فبادره أحد الطلبة قائلا : أليس هناك شعر (نايلون) ؟

◻ كتبت السيدة صوفي عبد الله في مجلة الاثنين بعنوان « شدوا الحجام وأرجعونا » ، قالت إن المرأة تطلب في الرجل قوة الشخصية وتحب أن تشعر بسطوته ، فإذا حرمت هذا الشعور اغتبطت بالتحكم في الرجل . وأرجعت الكاتبة إلى ذلك مطالبة المرأة بالمساواة وحق الانتخاب والاشتراك في الحكم ، فقد استنوق الجمل ، فرأت الناقة أن « تستجمل » .

وقد استرعى النظر في مقال السيدة قوة أسلوبه على خلاف ما ينشر في المجلة إذ يراعى فيه النزول إلى مستوى الجمهور العام ، حتى ليضطر أستاذ جامعي كالدكتور حسين مؤنس إلى الكتابة فيها بأسلوب يكاد أن يكون عامياً .

◻ أصدرت دار المعارف آخر حلقة في سلسلة (اقرأ) كتاب « الحب والكراهية » للدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، وقد تحدث فيه عن عاطفتي الحب والكراهية من حيث الفلسفة والأدب وعلم النفس وعلم الحياة ، حديثاً يجمع إلى إمتاع الأدب فائدة العلم والثقافة .

◻ قالت طبيبة كبيرة في انجلترا للآنسة أم كلثوم : إن دواءك الوحيد هو أن تغني . وقد أعربت أم كلثوم عن رغبتها في الإسراع بالعودة إلى مصر كي « تغني وتغني وتقول الطير من بدري صباح الخير » .

◻ تحاول محطة الإذاعة ستر موقفها المزري الناشئ من تقصيرها في تسجيل مسرحيات الريحاني — بشراء نسختين لروايتين كاملتين كانت محطة الشرق الأدنى قد سجلتها من مسرح الريحاني .

◻ لعل محطة تل أبيب اللاسلكية هي الإذاعة الوحيدة في العالم التي تؤدي إذاعتها العربية باللغة العامية .

هدى :

هو الفلم الجديد الذي يعرض بالقاهرة في سينما ريفولي ، أخرجه حلمي رفلة ، ووضع قصته نقولا بدران ، وكتب حواره بديع خيري، وقام بتمثيل البطلين فيه نور الهدى وكمال الشناوي ، واشترك معهما في التمثيل حسن فائق ومحمد كمال المصري (شرفنطح) وآخرون .

« هـدى » اسم الفتاة التي بني الفلم على تقديم شخصيتها (مثلتها نور الهدى) تظهر في أول منظر بمنزل والدها فتحي بك (حسن فائق) مدير شركة التصوير والتوريد ببور سعيد ، وهي تستذكر دروسها استعداداً لامتحان التوجيهية . ثم تنجح في الامتحان ، وما تكاد تفرح بنجاحها حتى يحزن لزواج أبيها من نسيمة الموظفة عنده بالشركة ، ويـوؤها أن تحل نسيمة ، وهي من بيئة سيئة ، محل أمها المتوفاة ، ولكن والدها يـترضيها وزوجته تحسن معاملتها في أول الأمر تملقاً للوالد المحدب على ابنته ، ثم تتغير عليها تغيراً شنيعاً وتذيقها ألوان الهوان حتى يصل الأمر إلى أن تحاول تزويجها من أخيها عاشور الذي كان بائعاً على عربة يد ثم أصبح مديراً للمخازن بشركة صهره فتحي بك ، وكانت هدى قد عادت من القاهرة حيث كانت تقيم مع خالتها وقد لحقت بكلية الحقوق طالبة فيها ، ولما كانت في القاهرة عرفها شكري (كمال الشناوي) أخو زميلة لها في الكلية ، فنازلها وهم بإغرائها، ولكنها أعرضت عنه وصدته . وشكري ضابط بحرية يعرف والد هدى من تردده على ميناء بورسعيد ، فذهب إليه يخطبها منه ، فعارضت نسيمة زوجة الأب وأصرت على تزويج هدى من أخيها عاشور . فهربت هدى وقصدت إلى الأستاذ عبد الصبور الموسيقي الذي عرفته في حفلة بمنزل زميلتها بالكلية ، وأفضت إليه برغبتها في الاشتغال بالغناء فرحب بها ومهد لها السبيل إلى الغناء بأحد الملاهي

وتـتبد نسيمة بزوجها فتحي بك وتمكن لأخيها عاشـور في الشركة ، فيدأب هذا على سرقة البضائع وتهريبها حتى تسوء حال الشركة ويفلس فتحي بك . ويذهب شكري مرة إلى الملهى فيرى به هدى التي تأبى مقابلته ، فيتصل بأبيها ويخبره فيحضر فوراً ، ثم نرى في المنظر الأخير شكري وهدى عروسين .

والفلم يعتمد — في موضوعه — على تقديم هذه الفتاة المكافحة التي أصرت على أن تحيا حياة كريمة شريفة ، فكان لها ما أرادت رغم ما اعترضها من عقبات وشدائد . ولكنه في الوقت نفسه كأنها معجزات ، فقد كانت تقوم ، عدا ما قدمت في تلخيص القصة ، بأعمال (بوليسية) في بور سعيد لكشف البضائع التي سرقها عاشور ، واقتضاها ذلك أن تمنق عاشور وشركاءه الخمر في إحدى الحانات ، حتى عرفت منهم وهم سكارى موضع البضائع . وقد أدى ذلك إلى زحمة الفلم بالحوادث الثانوية إلى جانب إرهاق هدى بما ليس في الإمكان المعتاد ، فهي طالبة بالحقوق ومطربة بالقاهرة و (أرسين لوبين) في بور سعيد ! ألم يكن في الإمكان تصوير هذه الشخصية دون وقوع الانتقالات في حياة فتاة نشأت في منزل محافظ ودرست في الجامعة ، ثم نراها تحذق سقاية الخمر واللعب بعقول رواد الحانات ..؟

وقصة الحب في هذا الفلم وضعها عجيب ، الفتى يحب الفتاة من أول نظرة وهي لا تعيره أية نظرة حتى النهاية حيث نراهما عروسين . نعم هو حاول إغراءها وهي فتاة شريفة ، ولكن لم هذا الوضع ؟ لم نر ما يبرره غير أن نشاهد الفتاة معرضة عنه لتتزوجه رغبتها أخيراً .. وقد أضعف ذلك مركز كمال الشناوي في الفلم وأظهره في مظهر تافه رغم أنه الفتى الأول فيه ، وقد طغت عليه شخصية حسن فائق حتى تحول مجرى الفلم من قصة حب بين فتى وفتاة إلى قصة بنت وأبيها .

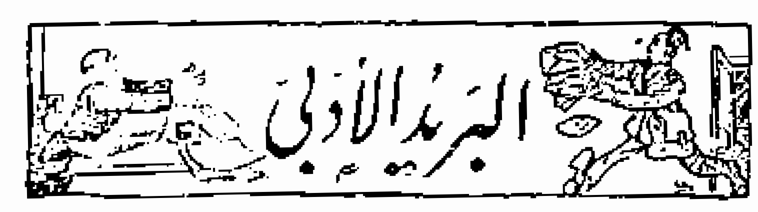
ونور الهدى ممثلة بارعة ، مميزة في التمثيل وفي الغناء ، وقد تم نجاح التمثيل في الفلم عليها وعلى حسن فائق ، فقد أبرزا الحياة فيه ممثلة في روعتها وظرفه .

ويمتاز الفلم بما اشتمل عليه من مشاهد الفن والجمال الخالية من الإسفاف والتهريج ، وقد وجه المخرج عناية كبيرة إلى برنامج الملهى الذي كانت تغني فيـه هدى ؛ ومن روائع هذا البرنامج منظر قطع فيه بيت شوقي المشهور :

نظرة فابتسامة فسـلام فكلام فموعد فلقـاء

ولا تحسبن تقطيعه على (فاعلاتن مستفعلن) بل جسم كلا من النظرة والابتسامة و ... الخ في هدف تحمله بنت ويرمي إليه السهم وتمر هدى بكل منها وتغني له غناء يشرح القصة الخالدة من النظرة إلى اللقاء .

عباس خضر



الضمير الأدبي ... وأين يوجد ؟!

اعتادت الرسالة الزاهرة أن تقدم لقرائها في سائر أقطار العالم أنضج الثمرات الأدبية وأشهاها لمختلف أدباء العربية من نثر وشعر وفن وعلم وأدب ونقد ..

وكانت رسالة النقد في « الرسالة » أسمى الرسالات حيث يضع المؤلف على بساط الفن والبحث ويعمل المبضع ناقد نزيه لا هم له إلا الحرص على المستوى الأدبي والحقيقة العلمية وتمييز القول ، وتلك رسالة النقد الجليلة . ولكن الأستاذ أنور المداوي كاتب « التعقيبات » بعد أن سطع نجمه في النقد البريء شط به الهوى فنسي قلمه ونسي ضميره حين كتب في العدد « ٨٣٥ » من الرسالة قوله « ولقد كنت أود أن أنى بهذا الوعد لولا رغبة كريمة من صديقين عزيزين بأن أكف يدي وأقبض قلمي تحقيقاً لغاية نبيلة هي إعادة الصفاء إلى النفوس . » إلى هنا وأتساءل في حيرة وتردد أين الضمير الأدبي ؟! وأين الحقيقة العلمية السامية التي من أجلها خلق النقد ؟

أحب أن أسأل الأستاذ المداوي ما معنى إعادة الصفاء إلى النفوس ؟! وما معنى الاستجابة للصديقين وترك الحقيقة الأدبية تنتحب وتلفظ أنفاسها الأخيرة بين يدى الصداقة ... !

ويعلم الله كم كنت مبتهجاً لجرأة هذا الأديب حين تناول بعض الأدباء بالنقد النزيه في إحدى تعقيباته وكتب « وأنا حين أكتب أنسى المجاملة والصداقة وأتوخى الحقيقة العلمية والأدبية ما استطعت إلى ذلك سبيلا » .

ولا شك أن هذا الكلام جدير بالتقدير والإعجاب أسطره للأستاذ المداوي بكل غبطة وسرور .

ولعل الأستاذ المداوي يذكر قول القائل « إذا كنت حريصاً على الصداقة فكن على الحق أكثر حرصاً » .

ولعله يجيب على كلمتي هذه في تعقيباته ليستأنس به الضمير الأدبي ضمير النقد النزيه الذي تعودناه منه ... وإني أناشد الأستاذ الكبير عميد الرسالة باسم الأدب والحق نشر كلمتي هذه في « الرسالة » لقراء منبر الحق .

وللأستاذ المداوي تحيات المؤمل المنتظر .

سليمان البغراوي
ليسانس آداب

رد على هجوم :

قرأت في العدد ٨٣٦ من الرسالة الغراء كلمة للأستاذ كامل محمود حبيب أوجز الرد عليها في السطور التالية :

أولاً : يقول إن قصة « مادلين » نشرت من قبل بالبلاغ بدون توقيع ... وأقول إن التوقيع سقط عند الطبع ، ويستطيع السيد أن يسأل الأستاذ إبراهيم نوار بالبلاغ !

ثانياً : يريد مني أن أثبت له أن القصة لي ... وأقول إني أتحدى أن يثبت أي كاتب هذا الشيء بالنسبة لقصة نشرها بإحدى الصحف ! أما الأدلة التي أملكها نعم ... أولا شهادة والدي الشيخ وأشقائي ، وذلك أن أخي الثالث هو بطل القصة ، ولأن القصة لا فضل لي فيها غير وضعها في الحروف ! ... ثانياً شهادة صديق من الأدباء ... ثالثاً شهادة « الثلاث أخوات السوريات » وشهادة شقيق « مادلين » وهو طبيب بالقاهرة ... فهل يريد سيدي أن أحمل إليه كل هؤلاء في « تاكسي » ليشهدوا لي ؟ ...

لقد اضطررت مرة للهرب من القاهرة بسبب قصة لي ، هربت من « الثابيت » ، فهل يرضى السيد أن أفعلها ثانية ؟

ثالثاً : يأخذ عليّ نشر القصة بالرسالة بعد أن نشرتها البلاغ . وأقول : إني كنت يوم نشر غيري من الأدباء قصائدهم في عدد من المجلات في وقت واحد .. لا أريد بهذا كبار الأدباء بالطبع لأن المسألة هنا فيها نظر ؟! . نشرت « مادلين » بالرسالة لأن البلاغ لا يخرج من القاهرة والإسكندرية فيما أظن ، بينما تذهب الرسالة إلى مشارق الأرض ومغاربها ! وإنما علم السيد إني لا أطلب للآن أجراً عما أكتب فهل يعود ليلومني على نشر قصة — سقط منها اسمي — للمرة الثانية ؟

رابعاً : يشير إلى « سابقة » لي ويعني بها أسطورة « الديك

الذهبي» لبوشكين .. هذه القصة بعثت بها للرسالة منذ شهور .. ثم حسبت أنها فقدت بالبريد ، فعدت وأرسلتها للبلاغ . وشاء سوء الحظ أو حسنه أن تنشر بالرسالة في نفس الأسبوع !

خامساً : يرى أن نشر قصة للمرة الثانية هو «فرار من الجهد، وضعف ، وخواء» . وأقول إني لا أجهد نفسي في كتابة القصص .. وإنما أتلقاها «جاهزة» من السماء أو الأرض وقد حاولت أن «أجهد» في كتابة بعض القصص فكانت النتيجة أن ضميري الفني أبى عليّ حتى الآن أن أرسلها لصحيفة ما !

هذا يا سيدي . وحسبي الله ونعم الوكيل !

يوسف جبرا

بويضة والسوام :

جاء في «الأهرام» تحت عنوان (بعض أوهام الكتاب) أن تصغير بيضة على «بويضة» خطأ في اللغة ، وأنه من أوهام الكتاب ، وأن الصواب : «بييضة» بياءين متعاقبين . كما جاء مع هذا أن «بينهم انسجام» أي وفاق من أوهام الكتاب أيضاً !

وأقول : إن تصغير بيضة على بويضة ليس خطأ ولا وهم ، بل هو وارد مسموع عن العرب الخلّص . وقد يدهش القارئ إذا علم أن كلة «بويضة» تصغير بيضة هي مستند النحاة الكوفيين منذ أكثر من ألف سنة في تجوزهم في كل مصغر فيه ياءان متعاقبتان أن تقلب الياء الأولى منهما واواً ، فيقولون في تصغير شيخ شويخ ، وفي بيت بويت ، وفي عين عوينة وهكذا . وذلك قياساً على ما سمعوه عن العرب . وهو «بويضة» . نص على ذلك الأشموني على الألفية ، عند شرح قول ابن مالك : واردد لأصل ثانياً ليناً قلب ...

والعلامة السيوطي في كتابه همع الهوامع عند الكلام على التصغير بالجزء الثاني من هذا الكتاب .

نعم قد وقع تصغير في كتب المعاجم المقتربة ، فلم تذكر ذلك ؟ ولكن عدم الذكر لا يدل على عدم الوجود . وكم من مفردات لغوية لم تذكرها كتب المعاجم !

أما «بينهم انسجام» فهو صحيح على ضرب من التجوز الذي لا حجر فيه في اللغة العربية متى وجدت العلاقة والقرينة المصححتان للاستعمال . وهذا من تشبيه توافق الناس وانتظامهم في مشاربهم بتوالي انسجام الدمع من العين ، أو الماء النازل من السماء على نمط واحد بدون اختلال . ومن هذا يعلم صحة قول الأطباء : بويضات جمع بويضة ، ووجاهة قول من قال : هؤلاء بينهم أو ليس بينهم انسجام .

(كلية اللغة العربية) **عبد الحميد عنتر**

١ — حول المؤرخ المصري المسلم أحمد بن زنبل الرمال وكتابه :

يذكر أنور زقلمه في كتابه المماليك في مصر أنه اعتمد على كتاب صغير وضعه رجل قبطي يدعى ابن زنبل الرمال .

وللحقيقة والتاريخ أقول إنه ليس هناك ثمة مؤرخ عرف بهذا الاسم إلا المؤرخ المسلم أحمد بن علي بن أحمد المحلي . ولقد ذكر الدكتور محمد مصطفى زيادة طرفاً من الحديث عن هذا المؤرخ في كتابه «المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي القرن التاسع الهجري» في ص ٧٥ ، ص ٧٦ . ويذكر الدكتور زيادة أن لابن زنبل كتاباً عنوانه «أخذ مصر من الجراكسة» وبالرجوع للكتب المخطوطة والمطبوعة بدار الكتب الملكية لم أجد لابن زنبل مؤلفاً بهذا العنوان . وإنما وجدت عدة كتب مختلفة العناوين تعالج موضوعاً واحداً هو فتح السلطان سليم لمصر وتتقارب هذه الكتب في عباراتها بل وألفاظها . فمن عناوين هذه الكتب كتاب السلطان سليم العثماني مع السلطان قانصوه الغوري . ويسمى سيرة السلطان سليم خان والجراكسة وما جرى بينهم ومع قانصوه الغوري ؛ وكذلك يسمى تاريخ ابن زنبل الرمال . وثمة كتاب آخر بعنوان آخر هو الواقعة بين السلطان سليم خان في فتوح مصر مع السلطان الغوري وطومان باي .

ومن هذا نرى أنه ليس في دار الكتب الملكية نسخة تحمل عنوان «أخذ مصر من الجراكسة» لهذا فآمل أن يحافظ الناشر



نماذج من عناية المستشرقين بالمخطوطات العربية

للأستاذ عبد العزيز مزروع الأزهرى

مما سبقنا إليه الغربيون عناية المستشرقين منهم ببعث الكنوز الشرقية فى عالم المؤلفات المخطوطة وبخاصة ما كان منها نفيساً نادراً . وساعد على هذا أنهم تخصصوا فى كل فرع من فروع الثقافة الشرقية : عربية وهندية و ... ؛ وأن مراجع كل فن تحت أيديهم بالمئات ، وأن لكل مرجع منها فهارس منظمة لكل ما اشتمل عليه ، ففهرس للشعراء ، وآخر للأعلام ، وثالث للأمم والقبائل ، ورابع للبقاع ، وخامس للقوافى ، وسادس لرجال السند مثلاً وهكذا .

فكل ما يحتاج إليه الباحث جملة وتفصيلاً فى أى علم أوفن يستطيع العثور عليه بنظرة خاطفة بفضل هذا التنظيم المثمر الذى ثبتت دعائمه على تضافر علمائهم ، وهيئاتهم الثقافية ، وسخاء أغنيائهم ، وتقديرهم لكل ما يوضح جانباً من جوانب الثقافة الشرقية التى هى إحدى الجوانب المشرقة للثقافة الإنسانية .

وقد كان همنا فيما مضى أن نستفيد من آثار هؤلاء المستشرقين بشراء ما طبعوه من مباحث ، أو نشروه من دفائن فى مدائنهم الكبرى ، ومكتباتهم العامرة ؛ أو بعض حواضرنا الشرقية إذا أشرفوا على الطبع .

أما الآن فقد رأينا فتحاً جديداً فى مصر فى هذا الميدان ؛ إذ قد تضافر (المستشرق ا . ليفى بروفنسال) أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون ، ومدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس مع (دار المعارف بمصر) فكان من نتائج هذا التضافر نشر كتاب ثمين من أمهات الكتب المخطوطة فى الأنساب وهو (جمهرة أنساب العرب لابن حزم) الأندلسى

على عنوان الكتاب وأن يجعله أقرب إلى أحد العناوين السابقة ؛ بل إننى ارى أن خير عنوان للكتاب هو « الواقعة بين السلطان سليم خان فى فتوح مصر ... الخ هذا إذا لم يكن الناشر قد عثر على مخطوطات أخرى تحمله على أن يجعل عنوان الكتاب «أخذ مصر من الجراكسة » .

ونرجو من ناشر ومحقق الكتاب أن يضرب صفحاً عن هذه الأشعار الكثيرة التى وردت فى النسخة المخطوطة رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب الملكية لأن هذه الأشعار تفسد كثيراً رونق الحقائق التاريخية التى ذكرها المؤرخ المصرى وتجعل الكتاب أقرب إلى الملاحم الشعرية الأدبية . كذلك على الناشر ان يلاحظ كثرة الأخطاء النحوية والإملائية التى تزخر بها النسخ المخطوطة من الكتاب بجانب اللغة العامية الفاشية فى معظم صفحات الكتاب . حقاً إنها لمهمة شاقة على الناشر والمحقق نأمل أن يوفق فيها فيخرج لنا سفراً هاماً فى تاريخ مصر فى أواخر عهد المماليك وبداية الحكم العثمانى .

٢ — الغَورى لا الغُورى :

وبمناسبة ذكر اسم الغَورى أقول إن من الخطأ نطق الغُورى بضم الغين وخاصة بعد أن حقق الدكتور عبد الوهاب عزام بك اسم الغورى فى كتابه « مجالس السلطان الغورى » فذهب الدكتور عزام إلى أن الضبط الصحيح لهذا الإسم الغَورى بفتح الغين لا ضمها . فهل لمدرسة تحفيظ القرآن الكريم التى اتخذت من ذلك البناء الأثرى الذى يطل على كل من شارعى الأزهر والغورية — ذلك البناء الذى فيه سبيل الغورى ومسجده على ما أعتقد ، ومدفن طومان باى على ما أرجح ، هل لهذه المدرسة أن تبقى اسم الغُورى مكتوباً خطأ بضم الغين وخاصة بعد أن ظهر الحق وبان ؟ ارفعوا اليافطة واكتبوا اسم الغورى صحيحاً تخلدوا ذكر الغورى حقاً .

شفيق أحمد عبد القادر
كلية الآداب — قسم التاريخ جامعة فؤاد الأول

المتوفى في منتصف القرن الخامس الهجري ، فأراحوا الباحثين من عناء المباحث المرهقة في مجاري المخطوطات القديمة التي هي أشبه بألغاز الخطوط الهيروغليفية أو المسمارية أو الحميرية ، ومهدوا بمهارسه سبل البحث لرواد الثقافة .

فهل إذا عثر المتصفح لهذا الكتاب الضخم على بعض هنات رفع عقيرته بالغض من قيمة ما صنعوا وبالغ في النقد والتجريح وينسى الجوانب المشرقة لهذا المجهود الجبار !!

إن الإنصاف يدعو إلى تقدير ذلك العمل ، وإنصاف من أشرفوا على طبعه ؛ لأنهم لم يألوا جهداً ، ولأنهم اختاروا فأحسنوا الاختيار ، واجتهدوا وللمجتهد حقه واجتهاده .

فإذا ما زل القلم فلا تثريب عليهم ؛ لأن صفحات الكتاب تربى على ٥٢٤ صفحة ، وكثير من أعلامه وقبائله غريب صعب فوق أنها تبلغ عشرات الألوف ، وبخط مغربي لا يكاد يقرأ ...

هذا جوابي لمن طلبوا إلى إبداء رأيي في هذا الكتاب باعتباري من المشتغلين بهذا النوع بل من المؤلفين فيه . أما الإشارة إلى بعض ما ند عن التصحيح ، أو ما سها عنه الأستاذ بروفنسال فسأنشر منه في كل فترة جزءاً مما عثرت عليه . وإلى حضرات القراء أولى كلماتي في هذا الموضوع إيضاحاً للحقيقة وتبصرة للباحثين :

١ — أول ما عثرت عليه من تلك الهنات كان في صفحة ٣٦٦ وقد جاء في السطر الثالث : « ومن بني عرينة بن (نذير) بن قسر بن عبقر : حية بن (جوين) بن علي بن (نهم) » وضبطهم (نُذيراً) بوزن زبير خطأ ، كما أن ضبطهم (نِهماً) بوزن رِغس خطأ آخر ؛ والصواب في (نَذير) أنه بوزن بَشير ، (نُهم) بوزن قُفل أي بضم النون لا كسرها .

يؤيد هذا الضبط ما جاء في أحدث مؤلفاتي « قاموس الأعلام والقبائل » وقد اعتمدت فيه على أمهات المعاجم ، وكتب الأنساب المضبوطة بالأوزان ، وما جاء في « مختلف القبائل ومؤتلفها » لابن حبيب ص ٥ ؛ وما ورد في « القاموس المحيط » . وقد يكون الناشر متأثراً في هذا الضبط ببعض المستشرقين الآخرين

٢ — وفي صفحة ٢٢٠ في الكلام على بني عبد الله بن دارم ذكر خمسة منهم ثم قال : أمهم من بني (أُسَيْد) كزبير بن عمرو ابن تميم ، والصواب (أُسيِّد) بتشديد الياء التحتية المثناة كما في صفحة ٤٥ من المؤتلف والمختلف ؛ ولما ضبطه طابعو الاشتقاق لابن دريد وهم من المستشرقين ، بل بدليل ضبط « بروفنسال » نفسه قبل ذلك ص ١٩٩ من الجمهرة نفسها .

٣ — وفي ص ١٩٠ أمران : (أولهما) أن المؤلف قال في نسب « بلال بن الحارث » إنه من بني مازن بن خلاوة بن ثعلبة ؛ فأراد الأستاذ الناشر أن يضبط باقي سلسلة النسب فقال : (ابن هُديمة) بالدال المهملة (ابن الأصم) . والصواب : (ابن هُذمة) بالذال المنقوطة و (لاطم) لا الأصم وهو من به صمم ، وقد وضع الصواب فيهما معاً « الفيروزابادي » في قاموسه في مادة (هـ ذم) والمختلف لابن حبيب صفحة ٣ بل إن في الجمهرة نفسها ضبطها الناشر نفسه ص ١٩٢ اعترفت بلاطم هذا ، فوق أن « أسد الغابة » جـ٢ في ترجمة « شرح بن ضمرة المازني » وترجمة « عبد الله بن درة المزني جـ ١ منها » وقبل هذا أثبت القاموس المحيط حقيقة الاسم الثاني وهو لاطم فقال : « جرس بن لاطم بن عثمان من مزينة » لا الأصم .

٤ — وفي ص ١٩٢ « ولد ضبة بن أد : سعد بن ضبة وسعيد ، قتله الحارث بن سعد ، ثم قتل ضبة الحارث بن كعب ، وفي ذلك سارت الأمثال : « أسَعد أم سَعيد » كأمير ، والصواب : (سُعيد كزبير) .

٥ — وفي ص ١٩٣ وهي الصفحة التالية قال المؤلف : منهم — أي من بني ضبة — ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب ؛ فجعل المصحح أبا كعب « بجادا » وهو ابن ذهل بن مالك والصواب : (بجالة) بن ذهل بن مالك بدليل الاشتقاق لابن دريد في كلامه على قبائل بني ضبة ورجالهم ص ١١٩

٦ — وفي ص ٢١٠ قال الناشر في ترجمة « زهرة التميمي قاتل جالينوس الفارسي » : (زُهرة) كحجرة بن (جوية) والصواب في الكلمتين : « زَهرة كفرحة » و « جُوَية » بالجيم المضمومة والواو المفتوحة ؛ وراجع هذا في « أسد الغابة » وغيره كالاشتقاق ص ١٥٥

٧ — وفي ص ٢١٣ عند الحديث في نسب « بني يربوع » ابن حنظلة بن مالك التميمي نقرأ : « منهم واقد بن عبد مناف بن

(عُزَير) وزن زبير بن ثعلبة ؛ وكرر هذا عدة مرات ؛ والحق أن عبد مناف هو بن (عَـرِين) وزن رئيس بالراء لا الزاى ، والنون الأخيرة لا الراء ؛ ولم تختلف كتب الأنساب فى هذا الضبط ، ولا المعاجم اللغوية كمختلف القبائل ص ٤٦ ، والقاموس المحيط مادة (عرن) والاشتقاق ١٣٥ ، ١٣٨ .

٨ — وفى نفس الصفحة أراد المؤلف أن يفيض فى ذكر « مالك ومتمم ابنى نويرة » فجاء مسير روقفال وجعل أبا نويرة (غيرة) بن شداد بن عبيد بن ثعلبة ؛ والصواب (جمرة) فالاختلاف فى (الحروف) و (عددها) و (ضبطها) وراجع هـذا فى المؤتلف ص ٣٥ والمفضل الضبي ص ٥٢٥ والأغانى حـ ١٤

٩ — وفى ص ٢٠٠ عند الكلام عن (الصمام التيمى) جعل من أجداده « كانية » بن حرقوص ، ومثل هذا الضبط فى نسب « خفاف بن هبيرة » وأعاد هذا الاسم ست مرات بالضبط نفسه ، والصواب : « كابية » وزن راية بالباء المفردة التحتية قبل الياء المثناة التحتية لا النون أخت القاف وراجع الاشتقاق ص ١٣٦ والمختلف المتقدم ص ٣٦ ، وخزانة الأدب للبغدادي .

١٠ — وجعل الأستاذ المستشرق فى ص ٢٠١ (حبيل) ابن ربيعة تصغير حبل جداً لمالك بن الريب التميمى أول من رثى نفسه قبل موته ، والصواب : « حسل » وزن عجل كما فى المراجع السابقة .

اشارات إلى الهنات :

١١ — وفى ص ١٣٦ سطر ١٥ قال : فأما هاشم فإنه ولد « حنتمة أم عمرو بن الخطاب » والصواب : (عمر) وهو الخليفة الثانى لأبى بكر .

١٢ — وفى ص ١٧٥ سطر ٣ قال : وأبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن (جندب) بن يعمر بن (حابس) والصواب : ابن (جندل) بن يعمر بن (حلس) ، وقد تكونان غلطتين مطبعيتين .

١٣ — وفى الصفحة نفسها ولكن فى سطر ٤ قال : ابن عدى بن (الدُّئل) وابن حبيب مثلا يرى أن ضبطه (الدِّيل) كزير

١٤ — وفى ص ١٧٩ جاء فى العنوان : وهؤلاء بنو (ملكان) ابن كنانة بفتح الميم ، والصواب كسرها .

١٥ — وفى الصفحة ذاتها ولكن فى السطر ١١ قال : ولد العون بن خريمة (مليح) كأمير ، وكررها فى السطر ١٧ ، والصواب (مُليح) كزبير بضم الأول وفتح الثانى .

١٦ — وفى ص ١٨٤ سطر ١٩ قال : فمن ولد منقذ بن طريف الشاعر « عبد الله بن الزبير » بضم الزاى وفتح الباء ، والصواب (الزبير كأمير) أى بفتح الزاى وكسر الباء المفردة التحتية .

١٧ — وفى ص ١٩٢ سطر ٩ قال : « يزيد بن عمرو بن أوس بن سيف بن (عمرو) بن (جلدة) فى الوقت الذى سبق أن قال فيه فى ص ١٩٧ سطر ٤ (ابن عمرو لا عمرو) بن (حلزة لا جلدة) فأيهما الصواب ؟!

١٨ — وفى ص ٢٠٩ سطر ١١ قال : فمن بنى حمان (نمرة) ابن مرة ، والصواب (نمر)

١٩ — وفى ص ٢١٣ سطر ١٤ قال : وصرد بن (حمزة) الذى سقاه أبو شواح المنى ، والصواب : (جُمرة) بالجيم المضمومة لا الحاء المفتوحة ، وقبل التاء المربوطة راء لا زاى .

٢٠ — وفى الصفحة عينها سطر ١٩ قال : فمن بنى سليط (أسيِّد) بن حياة ، والصواب : (أسيد) كأمير .

٢١ — وفى ص ٢١٤ سطر ١٦ قال : أم مسحل المذكور (الريداة) بنت جرير الشاعر ، والصواب : « الرَّبذاء » بالذال المعجمة وهى المنقوطة لا الدال المهملة .

٢٢ — وفى ص ٢٤٤ سطر ٣ فى البيت الثالث :

(والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى (الريح) والمطرا

أما ضبط الذئب بالضم فأرجو أن يتذكر قول « ابن مالك فى الألفية :

(فالسابق انصبه بفعل أضمرا حتما موافق لما قد أظهرا)

وأما الريح ، فصوابه : (الرياح) أولا : لأنها الرواية ؛ ثانياً : لأنه العروض وحسبي هذا الآن ، وإلى اللقاء —

عبد العزيز مزروع الأزهرى
بالمباة الثانوية

مطبعة الرسالة